امرأة ما بين الإنسانية وعبودية الخبز

نيفين سرور - امرأة بين الإنسانية وعبودية الخبز ، رواية

رقم الإيداع : ٢٠١٧/٢٩٠٠ ISBN : 978-977-798-057-9

إن دار الحلم للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره ، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

ولا يجوز طبع أو إعادة استخدام أي جزء من العمل في أي صورة كانت إلا بموجب موافقة خطية من الناشر .

© دار الحلم للنشر والتوزيع

عضو اتحاد الناشرين المصريين

القاهرة - جمهورية مصر العربية

Mob : 00201141824562

dar_el7elm@hotmail.com

info.darel7elm@Gmail.com

امرأة

ما بين الإنسانية وعبودية الخبز

نيفين سرور

الحلم
للنشر و التوزيع

إهداء

إلى هذه النفس التى استيقظت من كبوتها فلم ترض بالذل والاستعباد ..

حطمت قيودها من أجل كرامتها وإنسانيتها ،

أبت أن تسير على خطى العبيد ،

راحت تفتح نافذتها لكل آمالها وأحلامها ،

صممت لنفسها طريقا مغايرا لما اعتاد عليه أمثالها ،

لقد علمت أن لكل شيء ثمنا ...فما أغلى ثمن الانسانية والكرامة...

أبت إلا أن تكتب قصة يقظتها لربما تكون يوما نبراسا لغيرها يهتدى بطريقها ...

إلى كل امرأة مازالت مقيدة بسلاسل عبودية الخبز

إلى كل رجل اختلط لديه مفهوم القوامة بالسادية وحب التملك

إلى كل فتاة لم تركب إلآن قطار الزواج

إلى كل تائه عن هويته

أهدى إليكم هذه الصفحات

نيفين سرور

مثـل أى فتـاة أرادت أن ترتـدى هـذا الفسـتان الأبيـض فهـو حلـم لـكل بنـت فى مثـل عمرهـا ، ولكنـه كان أغـلى مـن بقيـة الفسـاتين، لقـد نسـجت خيوطـه مـن أفراحهـا المؤجلـة وأحلامهـا التـى عّطلتهـا وكل طموحـات حياتهـا مـن أجـل هـذا (الفـارس الهـمام).

كان عمرهـا يناهـز السـابعة والعـشرون ، وطبقـا لأعـراف المجتمـع الشرقـى لابـد أن تختـار زوجـا لهـا «أى زوج» قبـل أن يمـر قطـار الـزواج راحـلا تاركهـا عـلى رصيـف العنوسـة .

وكـما يسـمونه فى كثـير مـن المجتمعـات(زواج الصالونـات) يقولـون عـن هـذا النـوع مـن الـزواج أنـه أكـثر الزيجـات إسـتمرارا ونجاحـا ، فلـم لا تجـرب حظهـا كسـائر البنـات حولهـا مـن قريباتهـا..

كان اللقـاء الأول الـذى يسـمونه مجـرد تعـارف وحـدوث قبـول أو لا تـم تحديـده بسرعـة مـن ِقبـل عمهـا ، لقـد كان ابـن زميـل لـه فى العمـل ويبحـث عـن عروسـة ، و اقـترب عمـره مـن الثلاثـين لـذا فهـو عـلى عجـل مـن أمـره وخصوصـا أن السـكن جاهـز ويمكـن أن

يتم البناء بالعروس فى شهور قليلة ..

تزينت أمل وساعدتها فى ذلك ابنة عمها ، لقد تُوفى والديها منذ سنة فى حادث سيارة وليس لها إخوة ، ومن الطبيعى أن تعيش مع عمها الأكبر فعمرها لم يتجاوز العشر سنوات وقت حدوث هذا الحادث الأليم ، وكان من الطبيعى أيضا أن يسارع عمها فى زواجها لينتهى من هذه المصيبة الثقيلة كما كان يدعى دائما ، رغم أنها كانت رقيقة القلب ، دموعها على عتبات مقلتيها .. فاليتم قادر على أن يجعل قلب صاحبه مثل القارورة القابلة للكسر فى أى وقت ..

رأته أمل وكانت بعد انتهاء المقابلة فى حيرة من أمرها هل توافق عليه أم لا ، ولكن عمها صمم عليه لان العريس جاهز وفى نفس الوقت محاسب فى بنك ، ولكنها طلبت من عمها أن تقابله ثانية ، وبالفعل تقابلوا أكثر من ثلاث مرات ، ولكنها كانت تشعر بعدم التوافق بينهما و لا تدرى ما السبب ، وكلما حدّثت عمها بذلك ، قال : دلع بنات .. أنظرى لنفسك فى المرآه لربما وجدتى شعرك اقترب أن يتلون باللون الأبيض، فكانت أمل كثيرا ما تحاول أن تبتلع هذه الكلمات ، بماء الرضا ولكنها كالغّصة فى حلقها ،

أما راوية ابنة عمها كانت فى الثانوية العامة ، وكانت مقربة جدا إلى أمل و لم تكونا على خلاف إطلاقا ، فى أى مرة من المرات ، فسألتها عن سبب عدم إرتياحها ناحية مدحت « العريس» إن إمكانياته مناسبة وشكله مقبول وجاهز للزواج ، كانتا فى حجرة نومهما ، ولكن راوية بسؤالها ، أزاحت سحائب النوم عن عينى أمل ، فالتفتت إليها أمل متنهدة بكل يأس ،وقالت :

- أتدرين ياراوية عن ماذا أبحث؟

فقالت راوية:

- أود أن أعرف عن ماذا تبحثين يا أمل ؟

فقالت أمل :

- عن حبة العقد المفقودة ، أجل لا تنظرى إلىّ يا راوية بهذه الطريقة ، لم تتعجبين من كلماتى؟

فقالت راوية :

- لا أعرف ما حبة العقد المفقودة تلك يا أمل التى تبحثين عنها ،

فأردفت أمل :

- قد يكون ذلك العقد الذى فى رقبتى جميلا جذابا آخذا بمشاعرى ، أمتّع عينى بمنظره ويدى بملمسه وهو حول

رقبتى ، حتى إذا انفرطت حباته هممت بجمعها فى لهفة كى لا تتفرق بعيدا فتختفى عن عينى ، ولكن ماذا لو تجمعت كلها مرة ثانية سوى حبة عقد واحدة ؟ ستتغير حينها نظرتى إلى ذلك العقد الجميل وأظل أبحث عن حبة العقد الضائعة، فأحيانا نفتقد أشياء فى حياتنا نبقى بين الحين والاخر نتحسسها فى أعماقنا لا ندرى ماهى ولكن نشعر بفقدانها فى ذلك العالم الجوانى ، إنه العالم الذى كلما هممنا بأن نطرق بابه راح ينقضّ علينا «غول» عالمنا المادى ليحول بيننا وبينه ، فتخيلى عزيزتى راوية ، لو أن أحدهم ربت على كتفك ليقول تفضلى هذه الحبة الجميلة سقطت من عقدك، فإذا بكِ يشتد فرحك وتكملين العقد ليعود جذابا من جديد ، فحين يربت أحدهم على أكتافنا ليعيد إلينا ما افتقدناه على حين غفلة منا بين أمواج الحياة الهائجة فى تلك اللحظة ندرك ما الذى كنا نفتقده ولانعرف كنهه ، فى تلك اللحظة نشعر بقرب اكتمال عالمنا الجوانى ولا أبالغ إن قلت إن أسعد لحظات حياتك ستكون حين أعادوا إليكِ حبة العقد المفقودة ..

وفى صمت مطبق ساد بينهما للحظات حتى مزّقه صوت راوية الذى خالطته بعض العبرات الحزينة متأثرة بكلام أمل ، فقالت:

- وماالـذى تبحثـين عنـه يـا أمـل؟ ماهـى حبـة عقـدك المفقـودة والتـى لم تجديهـا فى مدحـت ؟

سكتت أمل فى حيرة وتنهدت ثانية قائلة :

- لا أدرى هـل سـيجلب الـزواج الحـب ؟ أم المفـترض أن أحبـه وأتأكـد مـن مشـاعرى ناحيتـه ثـم أتزوجـه ؟ مـا الـذى يـأتى أولا الحـب أم الـزواج؟ مـا الـذى مـن المفـترض أن يجلـب الآخـر ؟

فردت راوية :

- أنتى لم تحبيه إلى الأن ؟

فردت أمل:

- لم تكـن لـدى فرصـة سـوى أن أشـعر بقـدر قليـل مـن القبـول ولكنـى فى كثـير مـن كلامـى معـه لا أشـعر بإرتيـاح ، حتـى عندمـا يتركنـى ويرحـل لا أشـعر بـشىء ناحيتـه ؟ أيهـما يـأتى أولا الحـب أم الـزواج؟ فكـرت أمـل قليـلا ثـم أردفـت :

- إنـه حـين يباغتنـا ذلـك الحـب فهـو لا يسـتأذن قلوبنـا بالدخـول، حينـما يـأتى نقيـا صافيـا يخلـق بداخـل رحمـه جنينـا جديـدا لا يحتـاج لنمـوه الأشـهر فهـو يكـون مكتمـل النمـو فى لحظـات أتدريـن مـا هـو هـذا الجنـين ؟ إنهـا « الحيـاة « التـى ما إن تبـدأ فى النبـض فى رحـم الحـب حتـى تخـرج كالجنـين إلى العـالم ولا

أقصد بذلك عالمنا الخارجى ولكنها بهدوء تتسلل هذه الحياة إلى أعماق أرواحنا لنسمع بداخلنا نبض غريب عن مسامعنا يخبرنا عن بدأ الحياة حياة جديدة لاُتخلق إلا فى رحم الحب.. تمتمت راوية بكلمات لم تكد تسمعها أمل ولكنها مالبثت أن احتضنتها وقبّلتها من وجنتيها قائلة :

- أتمنى لك أن تجدين مع مدحت حبة العقد المفقودة...

لم تجد أمل بُدا من أن تقبل بالزواج ، فكثير من الفتيات مثلها تزوجن دون أن يتعرفن كثيرا على أزواجهن وهنّ الآن مرّ على زواجهن الكثير من السنوات ولربما تعرفه أكثر بعد الزواج كما قالوا لها ، ولكن لم يفكر أحد ، ماذا لو عرفته بعد الزواج ولم تتقبل هذه الشخصية ما الذى يمكن أن يحدث ؟ ماذا لو اكتشفت فيه صفاتا لا ترضاها ؟ ماذا لو ....؟ ماذا لو ...؟ لم يُنتبه لأشياء كثيرة ولم يعد لديها الوقت الكافى لتستوفى كل شروطها ومواصفاتها التى كانت تحلم بها أو لتتأكد هل هذا القبول سينمو فيكون فيما بعد الحب ، ولكن بدأ الإعداد لمراسم الزواج وحبها للفستان الأبيض وولعها بالذهاب إلى بيت جديد كل ذلك كان يستحوز على تفكيرها فى ذلك الوقت ، تمنت أن تكون حياتها الزوجية تعوضها عن فقدان أسرتها ،

تمنّت أن تجد بين أحضان زوجها حبة العقد المفقودة .. فهى لها مواصفات فى فارس أحلامها مثل سائر الفتيات.. جلست فى الصباح تحتسى قهوتها إنه اخر يوم لها فى بيت عمها وراحت شادية زوجة عمها تجر كرسي بجانبها ولمحت ورقة فى يد أمل تمسكها وهى شاردة الذهن عبر سطورها لدرجة أنها لم تشعر بشادية أو بجلوسها لولا أن ربتت على كتفها قائلة :

- كيف حال عروستنا اليوم هل هى جاهزة؟

إبتسمت أمل ، أجل ، قالت شادية :

- وما هذه الورقة التى تمسكينها بين يديك يا أمل؟

- قالت : ورقة كتبتها منذ دراستى بالثانوية ، كنت أكتب فيها مواصفات زوج المستقبل ،

فسألتها شادية :

- وماهى يا تُرى ؟ سكتت أمل ، لقد مزق الصمت بينهما صوت راوية وهى تنادى :

- هيا يا أمل لقد أتت مصففة الشعر ، بسرعة تعالى من فضلك ، فاستأذنت أمل من شادية وقامت .. لقد رسمت أمل لنفسها لوحة جميلة بألوانها وأقلامها لزوج المستقبل ولكن للأسف لم تستوفها ولو بعض

منهـا ، كانـت تريـد رجـلا يعاملهـا أنهـا ملكتـه وليسـت أمتـه، أن تكـون إحـدى مسؤلياته،وليسـت إحـدى
ممتلكاتـه ، أن تكـون وردة فى حديقـة حياتـه يسـقيها بحبـه واهتمامـه، فتعطيـه أبهـى منظـر وأزكى
رائحـة ،فالـورود كلـما اهتـم صاحبهـا برعايتهـا كلـما اسـتمتع بهـا ،لقـد كانـت عـلى اسـتعداد أن تهـب روحهـا
إليـه إن إحتـاج إليهـا و أن تجـد معه الحـب والحنان لقـد افتقدتهما منـذ وفـاة والديهـا ، أن تجـد حبـة العقـد المفقـودة بـين أحضانـه . كانـت تتمنـى أن تكـون دموعهـا هـى أغـلى مـافى حياتـه فـما أن يراهـا حتـى يحتضنهـا بـين ذراعيـه ويمسـح عـلى رأسـها بلمسـات الـود والرحمـة فينسـيها كل همومهـا وآلامهـا ، أرادتـه أبَـا وُأمـا وزوجـا وحبيبـآ وصديقـا وأخـا ، أرادتـه عائلتهـا الجديـدة ، وأن تكـون هـى أيضـا عائلتـه الجديـدة، أن تكـون الصـدر الـذى يحنـو إليـه ويلقـى عليـه بهمومـه وأحزانـه ، ولكـن لم يمهلهـا الوقـت عـلى الإطـلاق أن تتأكـد مـن كل ذلـك، لقـد أرادت أن تـسرع الركـوب فى قطـار الـزواج ، لـكى يسـعفها كل مـن العمـر والصحـة لإنجـاب الأطفـال وتربيتهـم قبـل أن تكمـل الثلاثـين مـن عمرهـا . ولم يعلمهـا أحـد أن الأهـم مـن إنجـاب الأطفـال هـو إختيـار أبيهـم

وأن تحيطهم بجو أسرى مناسب ...جو الحب والدفء .

وتزوجت أمل كم كانت فرحتها يوم زفافها تغمرها ، قالت :

- كنت أصرخ بفرحة لقد أرتديت أخيرا الفستان الأبيض مثل بقية صديقاتى اللاتى قد تزوجن قبلى ، وكانت الزغاريد من حولى فى كل مكان .. وبدأت قصتها من هنا . فلم يكن الموضوع بالهيّن فهو ليس فستانا ولا حفلة ولا شهر عسل ، فالزواج أعمق من من كل هذه السطحيات والقشور ، هو بناء إن لم توضع أسسه بدقة ونظام إنهار البناء على أصحابه.

لقد مرت الأيام الأولى كما يزعمون «شهر العسل» ، ببساطة وسرور وزيارة الأهل والأقارب لتهنئ الزوجين ، كان مدحت فى لطف معها وهى كانت سعيدة جدا معه فكل شىء مازال فى الغلاف ولم يُفتح ذلك الغلاف حتى الآن ، ولكن ما الذى يمكن أن يكون متواريا هناك تحت هذا الغلاف الجميل ، لا تدرى أمل ، ولكنها تقول :

- و ها قد انتهى شهر العسل ، ومرت الأيام وأنا منتظرة، أجل أنتظر هذا « الفارس الهمام»

أنتظر أن أجده ؟وهل الزواج ماهو إلا أسبوع أو شهر يسعد الزوجان فيه أم هو حياة مستمرة ، مشاركة دائمة فى كل

الأحداث من الطرفين ، كنت أجلس أنتظره ياترى أين رحل وتركنى ؟

إلى أى مكان ابتعد عنى وهجر روحى؟ ، لقد رحل بروحه بعيدا عنى، أصبح يعيش معى جسدا بلا روح ،

لقد أصبح كالحاضر الغائب ، كنت أنتظره كالوردة التى تتمنى أن يرويها صاحبها ، كنت أتلمس كلمة الحب من بين شفتيه كالظمئان الذى يتشوّف إلى الماء العذب . فالوردة ترتوى بالماء لتزدهر أما المرأة فترتوى بالمشاعر الدافئة والإهتمام.

زارتها راوية بعد أكثر من شهرين من زواجها ، فجلست معها فى الشرفة تقول لها :

- هيا إحكى لى يا أمل ما شعورك الآن ناحية مدحت ؟

سكتت أمل ، ولم تنبث أن فاض سيل من العبرات على وجنتيها وشهقاتها كادت تخنق أنفاسها ، لم تكد راوية تتمالك نفسها حتى قامت تشد أمل بين أحضانها وتمسح على رأسها وتقول فى حيرة :

- ما الذى حدث ؟ أخبرينى؟

قالت أمل:

- لا أدرى منذ أن انتهى أسبوع العسل وانتهت الزيارات

رأيت الرجل يتغير ناحيتى تماما لا يتحدث معى كثيرا ، ظننت أن هذه فترة وسيعود كما كان ، لكنى وجدته يبتعد عنى ، أنا أحتاج ما تحتاجه كل امرأة ، أنا أحتاج إلى من يحتضننى وقت ضعفى، ويحتوينى لحظة قوتى ، المرأة لا تحتاج إلى ضل الرجل كبديل عن ضل الحيطة ، فأنا لا أعلم ما العلاقة بين ضل الرجل وضل الحيطة، كما كانوا يقولون لنا ياراوية، وحتى لو كان للرجل ضلا فكان من المفترض أن يكون ضله تحتمى به المرأة فى لحظات، حين تتساقط عليها أمطار اليأس والقلق والخوف يحيطها من كل مكان» و تحتاج إلى ضله لتحتمى به من الحرارة المرتفعة حتى لا تصيبها ضربة شمس «أقصد حين تتوالى عليها ضربات لحظات الضعف والإنكسار» نعم ، قد تنكسر المرأة فهى إنسان ينتابه لحظات ضعف ..

فهمت راوية من كلام أمل أن مدحت قد أهملها إهمالا لا يكاد أن يُذبل أوراقها النضرة ، بل كاد أن يُميتها لم يعد يهتم بها ، حتى تلك اللحظات التى يقولون عنها أنها رومانسية لم تعد تشعر بها أمل ،و كلما اقتربت منه لتحدثه لربما تستكشف سر إنزواءه عنها تجده يزداد بعدا وقسوة ، وفى أوقات الطعام كانت تحاول أن تخرج الكلمات منه لتتحاور معه ، ولكنه كان

دائـم النظـر والتركيـز إلى التلفـاز ، كلـما هّمـت أن تجذبـه إلهـا كـما تفعـل النسـاء ، تجـده ينشـغل عنهـا بالـلاب تـوب أو التلفـاز ، فكانـت محصلـة كل جهدهـا

الـذى تقـوم بـه لتجمـع بـين أرواحهـما تضيـع سُـدى ..لربمـا فهـم الـزواج عـلى أنـه مجـرد امـرأة يأخـذ متعتـه منهـا وهـى مـع ذلـك جاريـة تطبـخ وتنظـف ولا حقـوق لهـا غـير ذلـك ولا يفهـم المـرأة ونفسـيتها .

مسـكينة أمـل لم تضيـع منهـا حبـة عقـد واحـدة بـل تقطـع عقدهـا وتناثـرت حباتـه بـين يـدى زوج لا يُـدرك كُنـه الـزواج .. هكـذا شردت راويـة بذهنهـا عـن أمـل وهـى تنتحـب بـين أحضانهـا ، ثـم انتبهـت لـكلام أمـل وهـى تحـكى لهـا ..

- فى كثـير مـن الليـالى كنـت أجلـس عـلى سريـرى فى غرفتـى فيسـتغرق تفكـيرى السـاعات الطـوال . كنـت أتسـاءل... ، يـا تـرى إلى أيـن سـافرت روح هـذا الرجـل وتركتنـى ، لمـاذا هـذا الجفـاء والإهمال،كنـت أظـل كذلـك كل ليلـة حتـى يغلبنـى النـوم فـلا أسـتطيع أن أقاومـه . إزدادت الحواجـز يومـا بعـد يـوم ؛ ولكـن ... سـكتت ثـم تنهـدت أمـل واسـتمرت فى البـكاء

فسألتها راوية:

- ولكن ماذا ؟

ردت أمل:

- أنا حامل منه ،

قالت راوية وهى تمسح دموع أمل :

- لعل هذا يوقظه قليلا ويقرب المسافات بينكما ثانية ، وقامت راوية تجر قدميها نحو الباب وهى تنظر إلى أمل ذات اللون الشاحب ماكانت تتوقع إطلاقا أن هناك من الرجال من يفهم المرأة هذا الفهم السطحى ولكنها تركتها على أمل أن يغير مجىء هذا الطفل القادم حياتهما للأفضل ، ورحلت راوية تاركة أمل على شاطىء اليأس ولكن ماذا عساها أن تفعل ، سوى أن تتصل بالهاتف لتطمئن عليها وتحاول أن تواسيها وتصبرها وهى تستمع فى كل مرة كم زاد جفاء هذا الرجل لها ..

كانت راوية تملأ فراغا نفسيا كبيرا لدى أمل ، لقد كانت هى الشخص الوحيد الذى تفضفض معه عن كل ما يخالج عالمها الخاص ، كانت تشعر أنها تشبه صوتها الداخلى الذى تحادثه ويحادثها طيلة الوقت ، لقد أصبحت تعيش حالة الخرس الزوجى مع زوجها مبكرا ، لم يعد يحادثها كثيرا ولم تصبح من

اهتماماته ، وحتى الإحتياجات النفسية من الحب والرومانسية تلاشت من بين حياتهما ، إنه الطلاق الصامت الذى تعيشه كثير من البيوت الآن ، جسدين فى نفس المكان نفس البيت وربما ينامون فى مخدع واحد إلا أن كل منهما حبيس نفسه لا شأن له بالأخر كأنه لايهمه فى شىء على الإطلاق ...

مرت الأيام والشهور سريعا ،وكانت زيارة راوية التالية بسبب انشغالها فى امتحانات الثانوية العامة ، كانت بعد مجىء الطفل الأول لأمل ، وكان عنده ستة أشهر ، قالت أمل :

- أخيرا تقابلنا ، وأمسكت بالطفل وقالت راوية

- ما اسمه؟

ردت أمل:

- أحمد

- اسم جميل جدا الله يبارك فيه ، وبعد قليل ذهبت أمل بطفلها لتضعه فى حجرته ثم خرجت إلى المطبخ لعمل بعض القهوة لها ولراوية ، وجلست أمل قبالها . تفضلى يا راوية ، قالت راوية وهى تنظر فى ملامح أمل متلهفة أن تعرف كيف سارت الأمور بينها وبين زوجها فقالت :

- كيف الحال الآن ، أعذرينى عن انقطاع الإتصال بك

طيلة الفترة السابقة كانت الإمتحانات صعبة بالفعل ، قالت أمل :

- لا بأس حبيبتى لكن حتى بعد إنجاب طفلى ، ظننت أن ذلك سيقرب المسافات ويذيب الحواجز ، ولكن لم يحدث ذلك ، بل كانت المعاملة تزداد قسوة ومهانة كل يوم ، ويترك مخدعنا لينام فى مكان آخر وهو لا يكف عن السب والإهانة لى لا أعلم أليس ذلك من الطبيعى أن يبكى الأطفال ليلا ، هل تعرفين يا راوية ، إن طول العشرة لابد وأن يظهر جوهر كل إنسان فلا يستطيع إخفاءه كثيرا ، إنه يرى المرأة كالأنعام يطعمها سيدها ويسقيها فلا يرى لها قيمة ولا رأى .

يراها فقط أنها للمطبخ والتنظيف واستجابة طلباته الزوجية كلما أراد فى الوقت الذى يريد هو وخادمة لأطفاله ، لا شىء سوى ذلك. شردت أمل بذهنها وسكتت فقالت راوية :

- ما الذى تفكرين فيه حبيبتى أمل ؟

قالت :

- بين الحين والآخر أجلس فى غرفتى أسرح عبر خيالى متذكرة أول لطمة على وجهى ، ولمست أمل خدها وكأنها تشعر بألم الضربة من جديد ثم أردفت ،كم كانت قاسية

تلك اللحظة خصوصا أنه لم يكن هنالك مايستدعى للضرب والإهانة ، لم تترك الضربة أى جرح على وجهى ولكنها تركت جرحا عميقا فى نفسى ، فالوجع النفسى أشد بكثيرمن ذلك المادى . لقد أصبحت أعيش يا راوية فى غربة ، وأشد أنواع الغربة هى غربة الروح ، تساقطت منها العبرات ورأت راوية الإجهاد تحت عينيها ، الملامح تنطق بقسوة الحياة لقد كانت تعيش معه فى نفس المنزل ،نفس المكان ولكن الأرواح غريبة، ثم أردفت أمل :

- هل تعرفين إننا قد نلتقى بأشخاص نجلس معهم ونحاورهم بل ولربما نعيش معهم ولكننا نشعر ناحيتهم بالتواصل الجسدى فقط ، وكأننا آلات نتعامل معهم ليسير قطار الحياة ولكن لا نشعر معهم بالأنس النفسى فما إن ينتهى مجلسنا معهم أو أن نرحل عن مكانهم ، إلا ونشعر بالسكون النفسى ، لقد كنا نعيش معهم غربة شديدة هى غربة الروح، وما أقساها من غربة ، فى حين أن هناك من لا تراهم أعيننا ولكن تأنس أرواحنا بهم و إن لم نتواصل معهم بأجسادنا يقدرون على رسم إبتسامة على وجوهنا الحزينة لمجرد تذكرنا لصورهم أو لكلماتهم لنا ، لا نشعر بالوحشة أبدا

معهـم عـلى الرغـم أننـا لانراهـم ولكـن دون
أن نشـعر نجـد أرواحنـا ترحـل إليهـم بـين الحـين والاخـر ،تواصلـت الأرواح دون تواصـل الأجسـاد ،
توافقـت العقـول والأفـكار دون أن يتلاقـى أصحابهـا ، هـؤلاء لا نفتقدهـم لمجـرد أننـا لا نراهـم ، لقـد سـكنت إليهـم النفـوس ونفضـوا عـن أرواحنـا غربتهـا ، لا نفكـر متـى نلتقـى بهـم لأننـا بالفعـل إلتقينـا فى عـالم مـن أروع مـا يكـون وهـو عـالم الارواح .... إنـه الأمـان النفـسى الـذى نشـعر بـه معهـم ..
كان يتركهـا وحدهـا كثـيرا ، ولا تـدرى مـا السـبب ولكـن لابـد مـن المواجهـة يومـا وهكـذا نصحتهـا راويـة ، وخصوصـا بعـد أن علمـت أنهـا أصبحـت حامـلا فى طفـل أخـر ولكـن لابـد أن تواجهـه لمـاذا هـذا التغـير الكبـير فى حياتهـما؟ هـل الـزواج هـو الأيـام القليلـة الأولى الهادئـة وفقـط؟ !
بالفعـل ذهبـت أمـل إليـه وهـو فى عزلتـه أمـام التلفـاز، جلسـت بجانبـه وأمسـكت بيـده لعـل هـذا التواصـل الجسـدى يفيـد فى شىء ، هـى تريـد كأى فتـاة إن لم تنـل حتـى مـن زواجهـا حبـة العقـد المفقـودة إلا أنهـا تريـد حتـى الإسـتقرار النفـسى ، الأمـان النفـسى وإن كان أمـان وهمـى لا حقيقـة لـه ،فكلنـا نحتـاج إلى

الأمـان لنكمـل حياتنـا فى هـدوء.. وراحـت تسـأله:

- لمـاذا أعيـش وحـدى فى هـذه الغربـة وأنـت معـى ؟ لمـاذا تشـتد علىّ قسـوة وتـزداد لى إهـمالا ، إنى أنظـر إلى نفسى فى المـرآه فـلا أعرفهـا ، بالأمـس القريـب نظـرت إلى وجهـى مـا عـدت أتعـرف عـلى تلـك الملامـح ، لقـد كان يحمـل كل مـكان فى وجهـى أوجاعـى وهمومـى، إن نظـرت إلى وجهـى سـتجده يحدثـك عـن قسـوتك وإهمالـك ، لم تسـتطع إكـمال الحديـث معـه لقـد سـكنت عبراتهـا أمامـه طويـلا، والآن هـا قـد حـان ميعـاد تتابعهـا فراحـت تبـكى بعد أن خنقتهـا دموعهـا فلـم تسـتطع كتمانهـا .وتابعـت كلامهـا محاولـة أن تتماسـك .. سـتحدثك هـذه الشـحوب والهـالات السـوداء حـول عينـى مـن كـثرة البـكاء ، ذبـول نضـارة وجهـى سـيحدثك عـن غربـة أعيشـها ولا تـدرى بهـا أنـت، وكأنى لا أعنيـك فى شىء ، أمسـكت بيده الأخـرى تتسـول نظـرة رحمـة وشـفقة منـه وراحـت تسـأله مـا الذى أغضبـك بشـأنى ؟ مـا الـذى غـيرك ناحيتـى ؟ لمـاذا كنـت تعاملنـى فى البدايـة بهـدوء وأدب ثـم انقلبـت عـلى عقبيـك؟ لمـاذا..؟ لمـاذا.....؟ كـثرت أسـئلتها منتظـرة أى إجابـة لترتـاح هواجسـها ويسـكن قلبهـا ويهـدأ عقلهـا مـن التفكـير قليـلا ..

ولكن مدحت لم يبالى فقال فى سخرية:

- لا شيء يضايقنى أنتِ من يُضخم الأمور لماذا كل هذه الأسئلة ؟ أنت تأكلين وتشربين وتلبسين ماذا تريدين منى أكثر من ذلك ما الشيء الذى قصّرت فيه معكِ ...

صدمتها كلماته السخيفة التى كانت لا تعبر إلا عن رجل لا يهتم إلا بما يهتم الراعى بما يوفره لأغنامه فما كان منها إلا أن وقفت تستند على جدار الحائط الذى بجانبه بيديها فى منتهى العجز النفسى والجسدى ، ثم رحلت عنه أمل وتركته بعد أن خاب رجاؤها واشتد يأسها .. ليتها ما واجهته لقد صُدمت من مشاعره القاسية، وكالعادة ذهبت إلى غرفتها أما هو فلم يكترث بكلامها ولا بفيضان عبراتها الذى فاض فجأة دون سابق إنذار ومضى يكمل مشاهدته للتلفاز.. تذكرت أنها كانت من البداية تشعر بعدم ارتياح له ، كانت تشعر بفجوة فى العقل والفكر بينهما ولكنهم قالوا لها بعد الزواج سيتغير والحياة الزوجية قادرة على أن تقرب بينكما ولكن لاشيء يتغير بل لقد بدأ البناء الأسرى يتصدع وفى طريقه أن تنهار أركانه.. فالنقاش الهادىء ومواجهة كل زوج الأخر بأخطاءه كل ذلك يحافظ على كيان البيت ، والإهمال هو أول مسمار يتم دقه فى نعش الحياة الزوجية ...

جلست فى غرفتها والعبرات تتساقط على وجنتيها دون توقف ، حاولت كتم صوت آلامها الدفينة بداخلها منذ ردح من الزمن، ولكن لم تستطع ، إنفجرت بالبكاء بعد أن حاولت وضع كفيها على فمها حتى لا يسمع صوتها ولكن وما الفائدة حتى لو سمعه سيظل متابعا لسهراته الجميلة لبرامج وافلام التلفاز ' ظلت تتساءل وهى تنظر لنفسها فى المرآه كانت تتحسس وجهها المهموم بيديها، لقد كانت كل آثار حياتها الزوجية واضحة فى تفاصيله وملامحه.. تساءلت .. ألهذا تزوجت؟ لماذا تركت نفسى تختار شخصا لمجرد الخوف من أن يفوتنى قطار الزواج ، ليت هذا القطار تركنى ورحل حيث يشاء

كيف سمحت لنفسى أن ألقى بروحى وذاتى وطموحاتى وحياتى كلها لأضعها بين يدى رجل لا يعرف قيمتها ؟ ، بل وكيف قبلت أن أتزوج رجلا دون أن أمهل نفسى وقتا لكى أتعرف عليه وعلى طباعه، فيم كانت العجلة؟؟ إرتمت على وسادتها وهى تبكى ، لقد كانت جفونها تتورم كثيرا من كثرة بكاءها فما أن تعالجها حتى يعاودها البكاء فتورم ثانية .. لقد مر على هذا الزواج خمس سنوات ، أنجبت خلالهما طفليها « أحمد ومحمد « ، لم تكن ترغب فى زيادة الإرتباط به ' فهى

قد حصّنت نفسها بإحدى وسائل تنظيم الأسرة، لأنها لا ترغب بمزيد من المسؤليات على عاتقها ، لم تعد تدرى إلى أين ستسير حياتها مع زوجها ، ولكن إرادة الله تغلب كل سبب..وفى هدوء راحت ترمق طفليها بحنين يغمره الأسى حتى أن هدأ بكاؤها ومسحت عبراتها ظلت تمسح على رؤوسهم بهدوء و كانت تتشابك خصلات شعريهما بين أصابعها ، لقد كانا فى سبات عميق ، تحسست بيديها ملامحهما الملائكية ، كان كل مايشغل بالها كيف ستناقش أهلها أنها تريد ترك زوجها والإنفصال عنه نهائيا

قالت ولكن....ولكن... ماذا أفعل وعندى أولادى الذين أحبهم، هل أفترق عنه بالطلاق ؟ أطرقت برأسها برهة من الوقت تفكر، ولكن من سيتولى مصروفات أولادى ومصروفاتى إن أنا تركته ؟ من سيعولنا ؟ إنها مسئولية كبيرة جدا على عاتقى وحدى وأنا لا عمل لى ، تذكرت كم من فرص أتت لها للعمل كمدرسة فى إحدى المدارس فهى تمتلك شهادة بكالوريوس خدمة اجتماعية ، ولكنها كانت ترفض العمل لإعتقادها أنها فى يوم من الأيام ستتزوج وسُتلقى على عاتق زوجها فتى الأحلام كل أحلامها ، فلم تفكر فى العمل بجدية وكانت تفضل أن تساعد

زوجـة عمهـا فى المنـزل وكان عمهـا لا يلـح عليهـا فى العمـل لأن معـاش والدهـا كان يغطـى مصاريفهـا ولأنـه كان فى حاجة لمسـاعدة زوجتـه فى المنـزل وهـى مصابـة بالسرطـان .. ، ظلـت

تقلـب نظراتهـا بـين أولادهـا وهـم نائمـون وتسـأل نفسـها مـاذا عسـاها أن تفعـل ؟ وظلـت هـذه الأسـئلة تراودهـا طيلـة لياليهـا وكان نومهـا متقطعـا ولكـن هاهـى أخـيرا لقـد توصلـت إلى إجابـة بصـدد أسـئلتها السـابقة .أجـل لقـد أخـذت أمـل قـرارا بشـأن حياتهـا مـع هـذا الرجـل، فهـى لـن تسـتطع مصارحـة أحـد مـن عائلتهـا بمـا هـى تعيشـه فى حياتهـا ، ومـا تلقـاه مـن إهـمال ، فلـن يهتـم أحـد بشـأنها فهـم كانـوا ينتظـرون بفـارغ الصـبر لحظـة خروجهـا مـن بيـت عمهـا وقـد تزوجـت هـذا الرجـل ، فمـن يهتـم بشـأنها إذن؟ ، ولم يكـن لهـا مـن الإخـوة مـن تذهـب إليـه لتستشـيره ، كانـت غربتهـا تقوّضهـا مـن كل مـكان ، فـكان لابـد وأن تتخـذ قرارهـا الـذى توصلـت إليـه بعـد تفكـير طويـل تخالطـه مـرارة الإحسـاس بـالألم ، لم يكـن لديهـا خيـارات كثيرة وهـى تفكـر لم يكـن لديهـا سـوى خيـاران اثنـان لا ثالـث لهـما ، ربمـا نظراتهـا لأولادهـا وأعـراف مجتمعهـا الظالمـة كانـت مـن دوافـع أخذهـا هذا القـرار ، قالـت لنفسـها: ذلـك المجتمـع الظـالم الـذى لا يقبـل بوجود

مُطلقة، وكأنها كائن انتهت صلاحيته للحياة ، فلا مكان لها بين أوساط المجتمع ، ولا بد لها أن ترضى بنظرات قد تأكل من جسدها قطعا قطعا طمعا فيها ، فهو مجتمع يقول إن المرأة نصف المجتمع وهو مجتمع لا يحترم إنسانية المرأة ، فالمُطلقة لا مكان لها بين أركانه ، فيفرض عليها أن تعيش متقوقعة على نفسها مقهورة مذلولة ، لأنها رفضت أن تعيش فى ظل الرجل الظالم فهو لذلك رسم لها معتقدا وهو أن ضل راجل ولا ضل حيطة ، وكأن الرجل والجماد بينهما مقاربة ولا أدرى ماهى؟ ، طلبوا منها أن تجلس فى البيت تربى الأطفال وتخدم فى المطبخ والبيت دون أن تُلقى نظرة على كتاب أو مستقبل لها بل جعلوا كل مايشغلها البيت والأولاد منذ أن تكبر وتصبح طفلة دائما يقولون لها يارب نشوفك عروسة ويخططون لها إن هى فشلت فى دراستها وماذا للبنت فى النهاية غير بيتها وزوجها، هذه غايتها فى الحياة ، كل هذه الأحاسيس كانت تراودها، كان صوتها الداخلى يصرخ بداخلها بكل هذه الكلمات ، واستمر هذا الصوت يحادثها فى شجن ، كان من المفترض أن أعتنى بعقلى بأن أرسم لنفسى مستقبلا قد يأتى وقت احتياجى إليه يوما ما ، لا أن أجعل مجتمعا عقيما يرسم لى مستقبلى وحياتى

فى ضل رجل قد يكون ضل الحيطة أفضل منه وأكثر أمانا منه ، فكانت النتيجة، أن هناك من النساء الكثيرات لا مهنة لهن بعد أن تركهن أزواجهن ، لا يدرين ماذا يفعلن وكيف يدبرن أمور حياتهن ، فكانت النتيجة المنطقية أن ترضى المرأة بقوانين الرجل الظالم أيا كانت تلك القوانين الظالمة ، فمن ينفق عليك لابد وأن يحكمك بقوانينه ، هذه هى السادية فى عصرنا الحالى ، فسارت المرأة تقيدها سلاسل عبودية الخبز والمال وهى لاتدرى ، صارت رهينة لهذه السلاسل والقيود والأغلال ، إما أن ترضى بقوانين الظلم من الرجل من ضرب وإهانة وإهمال وأكل لحقوقها ، وإما أن تُتشرّد هى وأولادها إن هى طلبت حقها فى ترك هذا الزوج الظالم ..فكانت نتيجة هذه الأعراف الظالمة التى لا تمت بصلة لأى دين ، أن تصنع من بعض الرجال طواغيت فى بيوتهم ، وأن تجعل من بعض النساء عبيدا لهم ، فصارت المرأة تقارن وتختار بين الإنسانية ومعاملتها الكريمة وبين عبودية الخبز والمال ، وكثيرا جدا ما ترجح كفة أغلال وقيود تلك العبودية . لم يضع هذا المجتمع الظالم ضمن أعرافه الواهنة كيف تكون المرأة ضامنة لحقوقها بمجرد أن تُهان كرامتها بضرب أو حتى بمجردإهانة لفظية ،

وما أكثرها ..ماذا لو طالبت بحقوق إنسانيتها دون أن تُذل من أجل المال لتعول نفسها وأولادها ، وكثيرا مايترك الرجل أولاده بعد الطلاق دون أدنى إهتمام ، ولكن الطريق الآخر الذى أصبح أمامها وما أوسعه من طريق فهو لا نهاية له ألا وهو طريق القضاء ، فربما تظل المرأة المطلقة تتسول حقوقها المادية بين المحاكم لسنوات، أما هذا الزوج الظالم فيتنعم ولا يصيبه شيء.. فالمرأة ليست نصف المجتمع ، بل هى الأساس المتين الذى يقوم عليه مجتمعاتكم ،وبنفس ذلك الصوت الذى يؤانسها فى عزلتها راحت تكمل ذلك المونولوج الداخلى وتتساءل .. فلم لاُتسن القوانين العادلة لحماية حقوق المرأة لا أقول المادية فقط بل وحقوقها كإنسانة ؟ وتساءلت بينها وبين نفسها لماذا لا تكون هناك عقوبات رادعة لمجرد الإهانة اللفظية لها ، فضلا عن الإهانات بالضرب ، وللأسف لابد أن يكون الضرب مُبرحا يترك آثاره عليها حتى تأخذ حقوقها ويعاقب الرجل على ذلك ، لماذا كل هذا التهاون فى حقوق المرأة وهى التى تتحمل من الأعباء النفسية مالا يعلمه إلا الله ، لقد جارت قوانينكم ، فجعلت المرأة تعيش فى ضل الحيطة ، أقصد فى ضل الرجل وهى عازفة عن ضله و غير راغبة فيه ، ولكنها تعلم

أن المجتمع أعرافه لن ترحمها كمطلقة ، ولن تعطيها حقوقها إلا بعد حين ، ربما يكون وهن جسدها من الإحتياج واُضطرت للتسول ، إن الأعراف السائدة فى المجتمعات سببا فى أن تعيش المرأة فى كنف رجل كارهة له وأن تهين من نفسها من أجل المال والخبز فتنشأ فى تلك الأُسر أجيال تستقر بداخلها أن المرأة لابد أن يقهرها الرجل وهى تصبر وتتحمل من أجل أطفالها فينشأ مسخ من هذه الأسرة وتتوالى الأجيال بهذه المعتقدات الخاطئة التى نشأت عليها ... توقف صوتها الداخلى عن الحوار معها ، لقد تعبت من التفكير ولكنها أخذت قرارها ..

قررت « أمل» أن تستمر مقهورة مذلولة من أجل الخبز والمال.. وهكذا انتهى حوارها الداخلى بينها وبين نفسها ، سأستمر.. فقررت أن تتحمل كل أنواع الإهانات فى سبيل أن تطعم أولادها ونفسها . قررت أن تعيش الحياة أى حياة ، لا يهم، وكان هذا هو الطريق الذى اعتادت السير عليه كثير من النساء مثلها.أمسكت بقلم وورقة ولأول مرة منذ أن تزوجت ستكتب شيئا عن حياتها ، كتبت فى منتصف الصفحة ...

رسالة إلى المجتمع من امراة مقهورة ..

بلغنى عن مجتمع غير رشيد وفى آراءه غير سديد أن امرأة كانت تتعالى صيحاتها تستغيث بهذا المجتمع كل بضع ليالى من ظلم زوجها فإذا بالمجتمع يقول لها .. ما أجمل صيحتك القوية ، يالك من قوية عذرا أيتها المرأة إستمرى فى طاعتك لسيدك لأجل مظهرك الإجتماعى وتربية أطفالك ، فتصمت اليائسة المقهورة وكلما صرخت بالمجتمع تستغيث رد عليها بنفس كلماته وذات مرة من المرات أُنهكت قواها تماما فلم تستطع أن تصرخ كما كانت تفعل من ذى قبل لقد خارت قواها ، فما عادت المسكينة تقدر أن تعول نفسها فسقطت هامدة على الأرض ، هنا فقط التفت إليها المجتمع حزينا باكيا مكشرا عن أنيابه ، وقال :

- لابد من أخذ حقك من هذا الوحش ورفع دعوى تقاضيه فيها بسبب الضرر

فقالت وهى تلتقط أنفاسها متعبة :

- بل ارفع أنت راية الحداد على عدالتك ومظهرك الإجتماعى البغيض ، إرفع راية الحداد على كل ما يعادى الإنسانية..

***

مرت الأيام والرجل يزداد إهمالا لزوجته ولأولاده بل ولم

يتحملحتى عبء تربيتهم النفسى ، أهملهم كما أهمل أُمهُم . ولكن لقد أخذت قرارها من ذى قبل سوف تستمر فى حياتها معه فهى ليست مؤهلة لتحمل مسؤليتها ومسؤلية أولاده وحدها ...

لقد كان هذا قرارها والقرارات هى من تصنع بل وتشكل نوعية حياتنا ومصائرنا.. كادت تخنقها كل هذه الأحداث من حولها ، كانت لا تعتقد بقدوم فجر جديد سوف تزول على إثره ظلمة الليل ، استسلمت لإهمال زوجها ، وقررت أن تتحمل كل هذه الإهانات الجسدية والنفسية من أجل أولادها ، كانت بين الحين والأخر تتفقد أثر بعض الكدمات على ظهرها أمام المرآه أو تلك التى تركت آثارها على ذراعها ، لم تسلم حتى من الإهانات اللفظية وأمام أبنائها كانت تتجاوزها ، كل ذلك كان كفيلا أن يجعلها تنام على سريرها آخر الليل وهى مقهورة على نفسها ، لم يكن يعاملها أحد بهذه الإهانات يوما ما بل كان والداها يكرماها فى المعاملة والتربية ، ولم تجد بين والديها فى المعاملة إلا كل احترام وحب ورحمة .. كانت « أمل» بالفعل تعيش محنة شديدة صعبة جدا على نفسها ولكن سبحان من يخلق من بين المحنة منحة لأصحابها ، فقد نُبصر يوما شعاع

الأمل رغم الظلام الدامس ،تأملت رسالة بسيطة أرسلتها راوية إليها عبر الهاتف كانت رسالة بسيطة ولكنها حملت الأمل والحياة إلى أمل ، فتحت الرسالة وقرأت ..

إن أصعب مرحلة من مراحل تطور دودة الفراشة حين تلتف بشدة داخل شرنقتها لدرجة أنها نفسها تظن أنها أقبلت على الموت،ولكن بينما هى كذلك فإذا بحالها يتغير ويتبدل فتظهر لها الأجنحة رائعة الألوان فتطير بها وتحلق بها فى كل مكان ترى فيه العالم كله من سماءها الواسعة ، تنطلق حرة بين الأشجار والأزهار بعد أن كان لها أرجل ضعيفة تمشى بها منحنية الرأس والظهر على الأرض ، وهكذا تبدو كل هذه الأوقات الصعبة القاسية التى تلتف حولنا تكاد أن تخنقنا ونظن أنها النهاية لحياتنا ، ولكن الحقيقة ستكون بداية ميلاد حياتنا وحريتنا ، نعم سيتبدل كل شيء حولنا سيتحول الضيق إلى سعة ، سنبصر شعاع النور من بين ثنايا الظلام الدامس ، وستظهر لنا الأجنحة التى سنحلق بها فى سماء الحياة من جديد وسوف تختفى كل هذه الأوقات

الصعبة القاسية كما اختفت أرجل دودة الفراشة ولن يكون لها أثرها فى حياتنا ، بل سيبقى منها فقط تلك التجارب

التى نتعلمها منها فتقوينا من خلالها وستتغير بسببها حياتنا .فالأوقات الصعبة ما أتت لتبقى ، بل أتت لتكون سببا فى ميلاد جديد لنا .. إنه ميلاد فراشة . رددت أمل دون وعى منها نعم سوف تنتهى الأوقات الصعبة إنها ما أتت لتبقى ولكن أتت لتكون سببا فى ميلاد جديد لنا ، وهذا ماصنعته حياتى مع هذا الرجل وكأن رسالة راوية كانت فى وقتها بالفعل ، لقد تغيرت الأحداث تماما فى حياة أمل ، لقد جاء مدحت إليها يتراقص فى فرح قائلا :

- عقد سفر عقد سفر إلى الكويت ، يا هنايا ياسعدى ،

- سفر؟

فرد مدحت :

- نعم إلى الكويت ومدته سنتين وسوف أجهز نفسى خلال شهر من الآن ، ولربما أجدد العقد بعد السنتين إن لزم الأمر .

- ولكنك لم تأخذ برأي بعد ؟

- وهل ستمانعين ؟ سوف أرسل لك فيما بعد أنتى والأولاد سوف تتغير الحياة إلى الأفضل ..

سكتت أمل فى ذهول يعتريه اليأس وراحت تجر قدميها فى

حـزن إلى حجرتهـا تـردد :

- سـفر .. سـفر ، أنـا لم أتحمـل المسـئولية كاملـة قبـل ذلـك وأنـا وحـدى فى الدنيـا أمـا الآن ومعـى أطفـال كيـف سـيكون الحـال؟ ،

ولا تـدرى أمـل هـل سـفره هـذا كان هروبـا مـن الحيـاة معهـا أم أنـه مـن أجـل الماديـات ؟ وفى خـلال شـهر كان كل شىء جاهـز ورحـل عنهـا إلى الكويـت ..

سـافر مدحـت ولكـن ومـا الفـرق؟ لقـد كان حـاضرا بجسـده معهـا ، غائبـا عنهـا بروحـه وتفكيره ...

وبـدأت تشـعر مـع أولادهـا بالوحـدة والضيـق ، لقـد تـرك إمـرأة لا خـبرة لهـا فى الحيـاة ..إنهـا الأن وحدهـا مـع أطفالهـا ، يـا تـرى كيـف سـتتصرف وحدهـا ؟ فالحيـاة متعبـة وشـاقة ..

هـى بالفعـل كانـت مـن قبـل وحيـدة وفى عزلـة نفسـية وروحيـة ولكـن الأن أصبحـت أشـد وحـدة وغربـة ، ظنـت أن هـذا السـفر ليـس فى صالحهـا وأن الأمـور ستسـوء أكـثر وأكـثر .. ولكـن هيهـات فكـم مـن أحـداث تفـرض نفسـها علينـا فتضيـق صدورنـا بهـا ثـم نُفاجـأ أنهـا كانـت الخـير لنـا ولـو بعـد حـين ..

تحملـت « أمـل» المسـؤلية كاملـة تمامـا أصبحـت هـى مـن

تدير البيت وتربى الأولاد وتنتظر المصروف الذى يرسله لها عبر الصارف الآلى، كانت تذهب بأولادها بين الحين والاخر إلى الطبيب لمرضهم، وكانت تجلس بهم عند الطبيب لوقت متأخر من الليل ، وقد تحمل إحدى طفليها لأنه نام أثناء الإنتظار فى العيادة ، فتدخل البيت مرهقة تماما ، وتذهب إلى المدرسة لحل المشاكل المدرسية لدى أولادها ، وتذاكر الدروس لهم ، وكانت تحاول دعمهم نفسيا بالحب والحنان لأن الرجل لم يكن فى ضمن أولوياته هذه الأمور ..فزاد إرهاقها وتعبها كانت المسؤلية على عاتقها شاقة للغاية كأنها جبل تم وضعه بكل ثقله دفعة واحدة على كتفيها، حتى أنها لم يكن لديها إخوة تشكولهم حالها ، ولم يكن لها من الأقارب من هو قريب جدا من قلبها ومشاعرها لربما يشعر بها إلا راوية ولكنها لن تستطيع مساعدتها فى حمل بعض هذه المسؤلية ، لقد كانت هناك مسؤلية من نوع آخر تواجهها إزاء أولادها ألا وهى المسؤلية النفسية ، كانت تحاول أن تعطى لهم الحنان والعطف اللذان كانا فى شدة الاحتياج إليهما فهو لم يشبعهما حنانا ولا حبا حتى وقت وجوده فى البيت معهم فقامت المسكينة بدور الأب ودور الأم ونسيت أنها زوجة ليس لأنه سافر وتركها ولكنها

حتى فى وجوده نسيت ماهية المرأة ، ..كما أنه لم يتعامل مع طفليه بمعنى الأبوة وهى الدفء والحنان والرحمة والإحتواء ، لم يلعب معهما كطفل ولم يجرى معهما ، لم يتبادل معهما النكات والمشاعر ، فكانت النتيجة أن حتى طفليه لم يفتقدا وجوده ، ربما كانا يبكيان من أجله لحظة سفره من المنزل ولكن سرعان ما تعود حياتهما خلال سويعات إلى حالها وهدؤها ... أما أمل فلما رأتها راوية بعد فترة من سفر زوجها لاحظت تغير فى ملامحها ينطق عن نفسية متعبة ، قالت لها مالى أراكِ أكثر شحوبا وإرهاقا ، فردت أمل أجل أعرف لقد تغيرت فكثيرا ما أكون فى مشيتى منحنية الظهر أحمل على ظهرى « حقيبة» ، قالت راوية : أى حقيبة ؟!! قالت:

- أجل يا راوية ، ولكنها مليئة بأطنان من الهموم والأحزان وصوره معى فى ذاكرتى ، كل الصور مؤلمة حزينة ، دائما أجرّ هذه الهموم ورائى جرّا ... فدائما أحزاننا تظهر على وجوهنا يا ابنة عمى ، تظهر حتى على مشيتنا، شئنا أم أبينا،لابد أن تنطق الوجوه بما تحمله النفوس بداخلها ، فقالت راوية وهى تمسح بيديها الحانية على رأس أمل ..ولكن ياأمل أما آن الاوان أن ننزل حقائبنا تلك من على ظهورنا لننطلق فى الحياة.. أجل

، إن كل منا يحمل حقيبة من السلبيات والهموم والأحزان ، فكلما همّ لبناء نفسه وذاته جاءته تلك السلبيات تجرّه جرّا إلى الخلف ، فلابد له من إنزال هذا الثقل بل وحرق كل ما بداخله من السلبيات سواء صورا كانت أم ذكريات مؤلمة ، فلا يبقى معه إلا حلمه وأهدافه التى أراد أن يحققها فى هذه الحياة لكى تدفعه فى رحلة الحياة إلى الامام . وإلا فكيف له أن يكمل حياته وظهره بهذا الإنحناء والضعف ؟

كان ولابد وأن تُنزل أمل هذه الحقيبة الثقيلة من على ظهرها فكيف لها أن تكمل خطواتها مع أولادها إلى الأمام وهى مثقلة الحمل .

ذات ليلة من الليالى بعدما نام أطفالها وقفت «أمل» أمام المرآه تمشط شعرها ولكن لم تكن على عجلة هذه المرة من أمرها ، فنظرت مندهشة لقد فاجئتها هذه الخصلة البيضاء تلمع فى رأسها، وكأنّ هذه الخصلة تريد أن تهمس إلى أذن أمل بكلام لا تريد أن يسمعه أحد سواهما فرمقت أمل خصلتها بنظرة طويلة، وشردت بذهنها وكأنّ الخصلة تهمس قائلة ... عزيزتى ..لا تجزعى منى فما جئت إلا سائلة عنك ،أجل عنك أنت ..جئت أسألك عن أيامك وسنين عمرك كيف قضيتيها ؟

جئت أسالك عن حلم صباك ، عن هذه الرسمة التى كنت قد رسمتيها لنفسك وأنت صغيرة بضفيرتك الجميلة ، هل تذكرينها؟ .. ظلّت أمل فى صمت واقفة ترمق خصلتها عبر المرآه بنظرتها الشاحبة ،و شرد ذهنها ، بعيدا،لقد تذكرت رسمتها تلك ، ثم تمتمت والعبرات تغرق وجهها قائلة: أجل رسمتى التى لطالما رسمتها بأقلامى ،

إنها حلمى الذى رسمته ، ولكن.....ولكن..... وإذا بفيضان من عبراتها الحزينة يفيض على وجهها ثم تمتمت

قد كان لى حلما أردته لنفسى وكتبته يوما على ورقة ورسمته بريشة ألوانى ، ولكن...

صدمنى الواقع فطويت تلك الورقة بعيدا عنى ولكنى...

ولكن لم أنساها ..وعاودت الخصلة البيضاء الحديث إليها من جديد فى دفء .. أى واقع عزيزتى تقصدين؟ ، هذه الحياة أنت من تصنعينها بقوتك وإرادتك وثقتك بربّك فهو لايخيب من ظن فيه الأمل أبدا، ولكن اعلمى أن حلمك وحياتك كلها لن تكون على أرض الواقع كما تريدين إلا بأقلامك أنت لا بأقلام وألوان غيرك .... إنتبهت « أمل» من حديث خصلتها ، لقد كان صوتا بداخلها يصرخ قائلا لا إحترسى « لقد بدأ حلمك

يشيب « فتداركى الأمر قبل فوات الأوان .. كان حلمها تلك الحياة الهادئة التى كانت تحلم بها مع زوج المستقبل وأن تحقق ذاتها وإرادتها بعمل . ما كانت تدرى ما هذا العمل الذى تريد أن تحقق ذاتها به ، ولكنها كانت تشعر بداخلها أن لديها قوة تستطيع أن تحقق من خلالها حلما يغير حياتها و لم تكن تدرك بالتحديد ماهيته .. لقد كانت مثل ورقة شجر على الأرض تتقاذفها الأرجل فى خفة ودون اهتمام ، أو كقارب يتهادى على سطح البحر ولايدرى صاحبه أين سيرسو به، إنه الفراغ العقلى والفراغ القلبى إذا اجتمعا على أحد لا يدعانه إلا منهكا تماما .

لقد إزداد الفراغ فى حياتها شيئا فشيئا ، ولاتدرى ما تفعل حيالـه، و لا تجد نفسها أمام التلفاز ولا مع الجيران ، حتى مكالماته معهم إذا أرادت مشاركته فى مشاكلهم وهموم أولاده ، كان يصرخ فى أذنيها وماذا تريدون منى أن أفعل ؟ كانت تحاول أن تقربه منهم ، لكنه لم يكن يروى ظمأها يوما قط.... لقد أراحت نفسها أخيرا ،وأخذت قرارا صامتا قرارا لا يعلمه أحد سواها ألا وهو سأعالج جميع مشاكلى أنا وأولادى من الأن بنفسى ، لن ألجأ لأى أحد ، مهما كانت تلك الهموم أو المشاكل

، لقد عوّدها الرجل على كل شيء، بداية من عدم نقاشه وحواره معها و تركها فى غرفة النوم كثيرا جدا تنام بمفردها فكانت تتقلب عن اليمين والشمال فلا تجده ، والأن عودها أن تسند نفسها بنفسها، بمعنى آخر لقد درّبها على أن تكون ظهرا لنفسها ولأولادها ، أن تكون امرأة بقوة رجل .. لقد بدأ الأمر بالفراق الجسدى ، ثم أتت غربة الروح ، وستعيش فيما بعد قريبا جدا غربة من نوع آخر ، ألا وهى غربة الأفكار والعقل.. إن الرجل ينسحب الآن من حياتها تدريجيا ، فلن يتواجد فى دنياها بأى صفة سوى صفة المُنفق ، فهو مصدر المال والمصاريف ، ولقد قررت سابقا أنها ستبقى وستستمر فى ظل عبودية المال والخبز .ذات يوم فتحت إحدى مواقع التواصل الإجتماعى تقرأ بعض المقالات فى المجلات التى تهتم بثقافة المرأة فشدها مقال جميل كان يتكلم عن ماهية الحب ، كان المقال بعنوان « بين كلمتى الحب والتعايش» قرأته بداية فى صمت بعينيها الدامعتيتن ومالبثت حتى بدأت تنطق كلماته بشفتيها ، وبدأت تردد الكلمات الواحدة تلو الأخرى...» ولم أجد لهما وصفا فى قاموس الحياة والوجود سوى أن هذا هو العذب ماؤه أما ذلك فهو ملح أجاج وكل ماتراه عينى

من الأخضر والألوان الزاهية للزهور سقاها ورعاها ذلك الماء العذب ولو كان سقاها الأخر ما رأتها عينى ولا عرفتها .. أما عن التعايش فهو مخاطبة العقول قبل كل شيء فلا يتجاوز مادية العالم المقيتة وليس كل تعايش تحتويه دائرة الحب.. وعن ذاك العذب ماؤه الذى لا ينمو الجمال فى الكون إلا به ولا نشتّم عبق العطر الجميل إلا منه فهو ذلك الحب الذى لا حوار فيه إلا بين الروح ونظيرتها التى وجدتها قبل أى شيء حين تلوح لها من بعيد تباشير الحياة الحقيقية والوجود الحقيقى الذى كانت لا تعرف ما كنهه إلا أن تسمع عنه ولا تراه ولاتقدر أن تشتم رائحته .. هنالك تسمو الروح عن هذا العالم المادى ويسمومعها وصفها لكل ماحولها وكأن الوجود يولد كل يوم من جديد لها ، وكأن الروح « أم» تتلقى كل يوم بسعادة ذلك المولود فلم تعد ترى فى ظلام الليل سوى ومضات النجوم الجميلة وفى النهار لا ترى سوى جمال الأخضر واليابس ومن ذا الذى يعّلم النفس ذلك السمو الروحى غير الحب ، وكما لا نرى ماهو جميل من حولنا إلا من ذلك الماء العذب ، فكل جميل فى الروح يكون بالحب فمن فقده فقد الجمال وإن وجد التعايش..» كان ذلك المقال لكاتبة فى مجلة نسائية تهتم

بثقافة المرأة ، كانت كل يوم تنهل أمل من مقالات تلك المجلة كانت تشعر أن هذه المقالات تسقى روحها التى كانت قد قاربت على الرحيل من الدنيا ..

أصبحت أمل بعد ثلاث سنوات غربة تتقن تماما فن تحمل المسؤلية. لقد مرت ثلاث سنوات الان على سفره وتركه لها ولأولاده ، بعد أن جدد عقده للمرة الثانية دون رأيها ، ولو حتى رفضت فما كلمتها بشأن عنده ، فالقوامة هى السادية فى مفهومه الذكورى ..

راحت تفتح دفتر أوراقها تكتب فيه بعض الكلمات التى تحمل مشاعرها فالكلمات ليست حروفا مجردة ولكنها تحمل نبض كاتبها..

كتبت :

- حينما تكون وطنا لى فى غربتى حيث لا أبى ولا أمى ولا إخوتى حيث لاقومى ولاعشيرتى فأجد روحى تسهو عن غربتها لتسرح فى أرض قلبك دون خوف فأستروح بين شرايينه رائحة الأمان فأنعم بالسكون والسلام ، حينما لا أختلج أن أنزع قوتى المستعارة فأبكى قبالك بكاء الأطفال وأصرخ صراخ المجانين فيظهر لك ضعفى فلا تستغله ولكن تحميه ، حينما تداهمنى

الدنيا بآلامها ويخلو الوفاض حولى من كل أمل فأسمع صوتك يناديني فى سويداء نفسى «أن ائت إلى ولا تترددى « حينماأخطىء فأجدك أول من يقوّمنى فأمتثل أمرك غير كارهة ولا مجروحة فى عزة نفسى ، حينما تنضب كل معونة من حولى فأجد فى بئر عقلك وأفكارك خير ما أروى به فقر أرضى ، حينما يطول اللقاء معهم جميعا فلا أجد إلّاك يقرأ صحائف قلبى ورسائل عقلى... إنها القوامة ، ثم أغلقت دفترها وقامت لأولادها ..

لقد باتت تعتمد على ذاتها فى حل كل مشكلاتها هى وأولادها ولا دخل للرجل إلا فقط بالمصاريف ، إن التعامل بمفردها مع المشاكل والعقبات و شخصيات الناس المختلفة أورثها صلابة وجرأة وقوة لم تعهدها فى شخصيتها من ذى قبل ، كانت خلال الثلاث سنوات تلتقى به قليلا إما أن تسافر له ، أو أن ينزل الأجازة ليقضيها مع أهله لقد كان لا يلبث أن ينزل أجازته وماهى إلا سويعات حتى يسحب أمل وأولادها كالراعى الذى يسحب قطيعه سحبا إلى منزل أهله ليقضى هناك أجازته ، وكانت بين الحين والاخر تهمس فى خلوة لها معه فى غرفتهما ، متى سنعود لمنزلنا؟

أريد أن أقضى المزيد من الوقت معك ، إقضى مع أهلك من

الوقت الذى تريده ولكن لاتنسى أريد أن أنفرد معك أنا والأولاد فى منزلنا ، جو الأسرة نفتقده جميعا يازوجى.. ولكن ربما كانت تلك المحاولة تفعلها لترمم ما يحدث فى بناء تلك الاسرة ، لقد أصبحت أركان البناء تتآكل شيئا فشيئا ، وهو لا يشعر.

فالمرأة كيف يكون لها زوج ، وعلى الرغم من ذلك تعيش دون رومانسية أو حب ؟ كيف تعيش دون مشاعر دافئة أو إحتواء وإهتمام لها من زوجها ؟ كيف لاتسافر مع زوجها وقد تيسر الحال معه فى أى مكان ليجددوا حياتهم الزوجية التى أصبحت الغربة الجسدية والروحية تنخر فى أركانها شيئا فشيئا ؟ ولكن ما الإحتواء الذى تفهمه أمل ؟ كان هذا السؤال أرسلت تسأل عنه فى البريد الإلكترونى للمجلة النسائية التى تتابعها ، ولما أُرسل إليها الرد راحت تقرأ الكلمات بشغف وحب فراحت ترددها لتسمعها الوجود كله من حولها ، قرأت.. « بينما تفترش السماء بالسحب المتفرقة فلا تلبث أن تتسلل على أطرافها بسكون مطبق لا يشعر بها أحد فتأتى كل سحابة تلو الأخرى حتى تتراكم أمام الشمس فننظر إلى السماء التى تلبدت بالغيوم فلا نكاد نلمح إلا شعاعا رقيقا من ضوء الشمس ، وفى أوقات كثيرة

تكاد سحب كثيفة من المشاعر والأحاسيس المضطرمة من الكره والأوجاع والحنين والآلام تتسلل هى الأخرى إلينا ، لقد أناخت على بوابة الروح ولا تزال تطبق تلك المشاعر عليها حتى تأتى تلك اللحظة ، حين تنبجس العين بدموعها والنفس بأوجاعها ، كتلك اللحظة التى ينهمر فيها المطر من بين السحب المتلبدة، نشعر حينها وكأن الوجود أغلق بابه ، وكأن النفس عافت عن الحياة فانزوت عنها رغم بقاءنا فيها ، وتبقى تلك الأحاسيس تلكزنا بين الحين والأخر ، والوجود لا يزال بابه مغلقا فلا نمتلك مفتاحه ، أجل وما أثمنه من مفتاح فقليل من هم يمتلكونه وإن تظاهروا بوجوده ، فإننا نقرأ صحائف أرواحهم من أسارير وجوههم .. إنه الحب .. تلك الحاء التى لم أجد لها وصفا سوى فى كلمة إحتواء .. ولكنه إحتواء للروح وللنفس لذلك العالم الداخلى ، وليس إحتواء البطون والأجساد ، فإن وجدت الروح تلك الحاء أقصد ذلك المفتاح ، فإذا بالوجود تنفتح أبوابه على مصراعيها ، كأننا نراه لأول مرة فنستروح أنفاسه تلك التى تناسمنا وتنزوى عنا أوجاعنا وآلامنا التى أرهقتنا .. حينها نرى أرواحنا كالشجر الذى تفتحت أكمامه وينتشر الهدوء فى سويداء النفس ، هنالك تمطرنا السحب فى ذلك الوجود الجديد

لـتروى ذلـك الجـدب الإنسـانى الـذى كان يـئنّ بداخلنـا .. لقـد كان ينضـب « .. فهمـت أمـل معنـى الإحتـواء المفقـود لهـا ..وكأنهـا حبـة العقـد التـى لازالـت مفقـودة

لقـد كانـت تسـمع أمـل صـوت التصدعـات فى بنـاء أسرتهـا كانـت تشـعر أن الإنهيـار قـد اقـترب أجلـه ، فكانـت تحـاو ل أن ترمـم بعـض هـذه التصدعـات ولكـن مـا الفائـدة مـن أن يرمـم الإنسـان شرخـا ولا يلبـث ينتهـى منـه حتـى يأتيـه زلـزالا يزيـد تشـقق بنائـه وتصدعاتـه ، ولكنـه لم يكـن يعبـأ بتلـك المحـاولات ،

وعـلى الرغـم مـن حديثهـا مـع أمـه وأبيـه عـن تغـير ابنهـما ، لكـن لم يغـير ذلـك منـه شيء ، لقـد كانـت تسـمع نفـس الكلـمات التـى تسـمعها كل امـرأة « اسـتحملى علشـان ولادك « تلـك الكلـمات التـى لا تعالـج موقفـا ولاتشـفى صـدرا ولا تحافـظ عـلى أسرة قويـة متماسـكة ، الكلـمات التـى دائمـا تُحمّـل طرفـا مالايطيـق ، فى مقابـل أن هنـاك طرفـا آخـر لايبـالى بـأى شيء ، الكلـمات التـى حصيلتهـا أن يكبـت أحـد طـرفى العلاقـة الزوجيـة فى نفسـه كل آلامـه وغضبـه حتـى تـأتى فجـأة القشّـة التـى تقصـم ظهـره ، فينفجـر الـبركان الخامـد بداخلـه ، ولا يلـوى عـلى شيء ، نعـم سـتتحمل أمـل ، سـتكبت بداخلهـا بـركان الغضـب والضيـق ، وسـتعاود

بين الحين والاخر الكلام معه ليهتم بها كما يكون من المفترض أن يفعل الرجل مع زوجته ولكن كل محاولة كانت تبوء بالفشل كالعادة ،كانت حتى اتصالاته عبر السكايب وهو فى السفر كان يسأل فيها عن أولاده مجرد

سؤال أما عند طلب التدخل فى حل أى مشكلة ولو بمجرد أن يعرض رأيه فلا جدوى . وكثيرا كانت

تتسوّل منه المشاعر الطيبة نعم كانت تتسول منه الكلمة الجميلة والإحساس الدافىء ، لقد كان الأمر يصل بها أن تتوسل إليه ليعاملها معاملة كريمة، بدون إهانة

، ولكنه كان يرد عليها « إنتى مش عرفة قيمة النعمة ايلى انتى عايشة فيها ما انتى بتاكلى وبتشربى وبتلبسى إنتى وأولادك « يا الله .. كم كانت تحبطها تلك الكلمات كثيرا ، و تقول لنفسها وهل أنا تزوجته من أجل الأكل والشرب واللباس ؟ إننى كنت أيضا فى بيت عائلتى أشرب وألبس وآكل .. وهل أنا غنمة فى قطيع

يكفيها أنها تأكل وتشرب ؟ أنا إنسانة لى كرامة وحقوق زوجية لم أعيشها .. لقد أصبحت تتسوّل

المشاعر الرومانسية منه وكذلك تتسول أن يعاملها بكرامة . ....،

لقـد زاد الفـراغ العاطفـى والفـراغ الجسـدى ، فـراغ الـروح ، لقـد انسـحب الرجـل الآن مـن حياتهـا عمليـا بمعنـى الكلمـة ، فأيـن هـؤلاء الذيـن يقولـون « ضـل راجـل ولا ضـل حيطـة «، ولكـن.... مـاذا لـو أن المـرأة تحسّسـت هـذا الظـل حولهـا فلـم تجـده فى كل هـذه اللحظـات ؟ هنالـك فقـط تسـتنهض روحهـا بقـوة وهبهـا لهـا الخالـق , لترمـم حطـام ذاتهـا المتناثـرة فتصنـع لنفسـها لا أقـول ضـلا بـل حصنـا منيعـا

تحتضـن ذاتهـا بداخلـه وتحميهـا مـن كل ضربـات الحيـاة المتتاليـة الموجعـة ، بـل ومـن كل أمطـار الخـوف والقلـق التـى تتسـاقط عليهـا مـن كل مـكان ، لقـد ضـاق صدرهـا كثـيرا وفـاض صبرهـا ، ماهـذه الحيـاة المهينـة ؟

إن الأزمـة التـى كانـت تعيشـها أمـل كانـت أزمـة هويـة . أجـل هـى لاتـدرى مـن هـى بعـد.. فعندمـا تتسـوّل المـرأة مشـاعر الحـب ومعاملـة الإنسـانية مـن زوجهـا تجدهـا تائهـة عـن ذاتهـا الحقيقيـة تشـعر بفـراغ قاتـل بداخـل ذاتهـا وكأنهـا تبحـث بنفسـها عنهـا ، فهـو بالفعـل كان ينعتهـا بصفـات تفقدهـا هويتهـا وذاتهـا ، بـل وإنسـانيتها ، وهـى للأسـف الشـديد كانـت تعتبر رأيـه فيهـا واقعـا حقيقيـا لهـا ، نعـم كان بمعاملتـه تلـك أراد أن يمحـى شـخصيتها مـن

كل ما يميزها ، فيكون هو الآمر الناهى ، الذى لا تناقشه زوجة ، ولا تنصحه ، فهو « سى السيد» وهى الخادمة المطيعة التى لا ذات لها هى فقط تلبى ما يريد منها وتطيعه وإلا فهى زوجة فاشلة ، وأُم غير ناجحة ، بل وربها غضبان عليها ، هكذا كان يرى مقام الزوجة أو المرأة عموما ، وهذا لا يدل إلا عن نقص فى جوانب شخصية هذا الزوج ، فهو لا يجد نفسه رجلا إلا فى بيته ، وعلى زوجته. لعلها النرجسية القبيحة ، أوالشخصية السيكوباتية . فالطاعة العمياء هى أصل العلاقة الزوجية عنده ، فما أصعبها من حياة فى ظل هذا الرجل ..

وأصعب شىء أن يفقد الإنسان منا هويته وذاته فلا يعد يدرى من هو بل ، إنها حالة الضياع ، حالة فقدان الذات واللاوجود، والأشد من ذلك هو أن يعتبر الإنسان رأى غيره فيه واقعا له فى حياته ...

أمسكت بقلمها وراحت تقلّب صفحات تلك المجلة على الإنترنت ، كأنها تبحث عن إجابة لنفسها « من أنا ؟ « ، المقال الذى فتحته كان بعنوان « البحر « ، أسندت ظهرها إلى ظهر مقعدها ، وأمسكت بنظارتها لتقرأ وتسرح بخيالها فى عالم آخر، قرأت

« هـل رأيتـم البحـر يومـا ؟ .. .. إن البعـض يصفونـه بالقـوة فيـما ينعتـه آخـرون بالغضـب ويصفـه أولئـك بالغـدر .. يتعـدد الوصـف لـه ولكـن يبقـى البحـر كـما هـو ،

تتحـرك أمواجـه ومالحـة مياهـه ، لا تغـيره كلماتهـم ولا يعـير اهتمامـا لنعتهـم ، كأنـه يـدرك (هويتـه)

وقـد تمـضى بنـا رحلـة الحيـاة ولا يـدرى بعضنـا هويتـه « أجـل مثـلى أنـا .. هكـذا تمتمـت أمـل « ، ولكـن لحظـة .... ومـا هـى الهويـة ؟؟؟

يعتقـد البعـض أنهـا مجـرد جنسـيتك أو ديانتـك ، لا بـل هـى أيضـا ذلـك الإنسـان الـذى يعيـش بداخلـك ، هـى ذاتـك وأفـكارك ، عالمـك الجـوانى الـذى لا يـدرى عنـه مخلـوق أى شىء سـواك ، ولكـن قـد تتنـاوب علينـا طيلـة حياتنـا بعـض الملصقـات التـى ينعتنـا بهـا الاخـرون فنشـكل حياتنـا وأفكارنـا طبقـا لهـا فنمـضى فى حياتنـا نعيـش (أزمـة هويـة) ولا نـدرى بهـا لأنهـا صـارت معتقـدات نعيـش بهـا صرنـا نعيـش بنـاء عـلى هـذا الملصـق الـذى نعتونـا بـه ، فالبعـض ينعتنـا بالمطلقـة المسـكينة أو الأرملـة البائسـة أو الفاشـلة فى حياتهـا

أو ....أو..... وتتـوالى علينـا الملصقـات مـن هـؤلاء الفوضويـين

الكسالى الذين لو انتبهوا إلى حياتهم لحظة لوجدوا أنفسهم بلا أى هوية ، وما أشدها علينا من خسارة أن نجد أنفسنا نعيش حياتنا طبقا لما أراده لنا الاخرون .. إننا بحاجة أن نغوص فى أعماق أنفسنا ، داخل هذا الإنسان الذى لا نعرفه ، لنسأله عن أفكاره وطموحاته ، ماذا يريد من هذه الحياة ؟ ولماذا يريده ؟ ولابد أن نكرر هذا السؤال لأنفسنا كثيرا حتى نجد الإجابة ، ولربما تحتاج الإجابة منا لأيام طوال حتى نجدها ، فلا يتعجل أحدنا من رحلة الغوص تلك ، ولاريب أنه سيعود منها ببعض اللآلىء ، والأحجار الثمينة ، ولربما نجد تلك الجوهرة الثمينة التى كانت مستترة مستكينة بين شعاب أنفسنا ، سنعود من رحلة الغوص تلك وقد نزعنا عنا تلك الملصقات التى نعتونا بها ، مؤكد سنعود بهوية جديدة .»... لقد كانت أمل ، فى حاجة شديدة إلى رحلة الغوص تلك بداخل أعماق نفسها لتستكشف من هى ؟ وماهى هويتها ؟ لربما طمست عبودية الخبز والمال تلك الهوية .

أكملت قراءتها وهى تحتسى قهوتها ..» إن القهر والذل قادران على أن يطمسا معالم هويتك بل إنسانيتك وأنت لا تدرى فيسير الإنسان منا فى حياته يتحسّس ذاته ، تجده يبحث عنها فى كل

مكان داخل أعماق نفسه ، وما أن تحين له الفرصة ليجلس منفردا ، حتى يتساءل من أنا ؟ هل هذه الحياة التى رسمتها لنفسى ؟ هل هذه آمالى وطموحاتى ؟ لماذا وكيف ومتى أصبحت هكذا ؟ وكثيرا ما يقوم الواحد منا من جلسته تلك إلا وهو منهك الذهن ومتعبا من البحث عن هويته ...

فهل من طريق لإستعادة هوية مفقودة ؟

ولكن لكى تستعيدها فلابد من بذل الكثير من الثمن . وهناك من يريد لك ألا تبحث عن هويتك المفقودة الضائعة لأن من مصلحته أن لا تعثر عليها ، وأن تموت بداخلك هويتك وذاتك وأن لا يبقى منك إلا هوية العبيد المقهورين بعبودية الخبز والمال ..... ولكن هذا ما يريدونه هم ، أما الله الرحيم فقد يريد شيئا آخر، فقد تُحى أمطار السماء زهرة قد أقبلت على الرحيل من دنيا الناس. قد تأذن إرادة الله تعالى أن تنبت زهرة فى صدر جبل «.. ، أنهت المقال وقامت وكلماته تمر عبر عقلها وفكرها كان هذا المقال رسالة أرسلها الله إليها لتبحث عن هويتها ، ..لقد بدأت أمل فى رحلة الغوص تلك لإستعادة هويتها ولكنها ما كانت تدرى بالفعل كمّ هذه الأحجار الثمينة التى ستعود بها لم تكن على علم بأنها على موعد

لإستكشاف جوهرة من أغلى وأرقى أنواع الجواهر .....وإليكم الأحداث ... ، لقد ظهر عشقا جديدا فى حياة أمل..

عشق من نوع آخر لم تصادفه قط فى حياتها ، ظهر ذلك فى السنة الرابعة من سفره ، الآن هى قادرة على تحمل المسؤلية ، لديها الجرأة والشجاعة على مواجهة كل مشاكلها بثبات ويقين، تبقى الآن أفكارها وعقلها لابد أن يُسقى بماء نقى كان ذلك الماء الذى سقى عقلها وكان سبب فى نضج أفكارها هو القراءة.. أجل هذا هو عشقها الجديد الذى لم يخطر على بالها يوما، لقد بدأت تملأ هذا الفراغ الذى كان لديها بالقراءة والإطلاعات المختلفة، بداية أمسكت كتبا تتكلم عن السيرة النبوية وعن تفسير القرآن . بدأت تقرأ عن حقوق المرأة فى كتاب قضايا المرأة للإمام الغزالى وقرأت فى تفسير الآيات التى تخطط لبناء الحياة الزوجية ، فوجئت بمعنى القوامة فى تفسير الآية « الرجال قوامون على النساء»..فقرأت ، إن القوامة هى أن المرأة إحدى مسؤليات الرجل ، وليست إحدى ممتلكاته ، لابد أن يكون سندها وظهرها لابد أن يبادلها مشاعر الحب والرحمة ، فالقوامة ليست قهرا للمرأة ، القوامة إذن لا تعطى للرجل حق ضرب وإهانة المرأة ولا إهمالها ، ولا أن يعايرها بأنه يطعمها بل

ذلك فرض فرضه الله تعالى عليه .. قالت لنفسها :

- هل كرمنى ربى وجعل لى كل هذه الحقوق إنه تعالى يقول

(***ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف***)

إذن حقوقى مثل حقوق الرجل وأما

(***وللرجال عليهن درجة***) فهى القوامة

التى فهمتها سابقا... كانت تظن أن عادات المجتمع الغاشمة التى قهرت المرأة واستعبدتها هى الدين الذى شرعه الله تعالى لعباده ، وأن المرأة لا حقوق لها ، وخصوصا حينما يقولون لها الحديث أن النبى أخبر أنه لو أمر أحد بالسجود لأحد لأمر المرأة أن تسجد لزوجها .. وكانت تقول بين نفسها لِم أسجد لرجل يذلنى ويهيننى ، أهذه مكانتى ؟ فلما قرأت الأيات فوجئت أن كرامتها محل اعتبار فى الدين ، وراحت تقرأ فى السيرة إن النبى الكريم محمد صلى الله عليه وسلم كان يجلس على الأرض ويثنى إحدى ركبتيه لتصعد عليها زوجته لتركب ناقتها، وهنالك حديث تقرأه إنه يصف النساء وصفا رقيقا فيقول صلي الله عليه وسلم

(***رفقا بالقوارير***) وتتابعت القراءة لكل الايات والأحاديث فى السيرة ففرحت وابتهجت أساريراها ، إن لى حقوقا وكرامة

وإنسانية فى هذا العالم أعطاها لى ربى ، فلم الدنيّة تلك التى أقبلها فى حياتى، لماذا أقبل الإهانة والقهر مقابل الخبز والمال ، إن من حقى أن ينفق علىّ وأنا ممتلكة لكل حقوقى وكرامتى وإنسانيتى ، من الذى شرّع إذن للرجال الظالمين أن يقهرون ويذلون نسائهم مقابل اللقمة وتربية الأولاد ؟ .. تعمّقت أمل فى قراءتها فوجدت أن المرأة خرجت قديما فى غزوات المسلمين وكذلك خرجت فى غزوات المشركين ، إذن المرأة كانت تشارك فى الحياة السياسية ، كانت تشارك فى الحرب ، وقرأت فى موقعة الجمل كان الجيش المسلم يلقب فى روايات الكتب بجيش عائشة « زوج الرسول صلى الله عليه وسلم « إذن الجيش يُلقب باسم امرأة ، ما هذا ؟ إذن المرأة ليس مكانها فى المطبخ فلا تخرج منه ، ولا البيت فلا تجلس فيه حتى الموت ، إذن المرأة لها دورها فى المجتمع ،

وقرأت أن فى فتح مكة ، أجارت امرأة تُدعى أم هانىء رجلا مشركا فوافق النبى صلى الله عليه وسلم ،على إجارتها للرجل الكافر. إذن المرأة كان يُعترف بحقوقها السياسية والإجتماعية، فالمرأة قيمتها فى عقلها وأفكارها ، ولابد وأن تكون المرأة متعلمة قارئة لكى ينشأ جيلا عالما ، لا جاهلا .. فوظيفتها تربية

العقـول لا تربيـة البطـون.. قالـت لنفسـها أجـل المـرأة كائـن لـه شـأن عظيـم فى المجتمـع ، ليسـت شـيئا مهمـلا ، ليسـت عـارا كـما تصورهـا كثـير مـن المجتمعـات الشرقيـة، وليسـت كائنـا كل وظيفتـه إغـراء الرجـال مـن أجـل ترويـج سـلعة كـما يصورهـا لنـا الغـرب أيضـا، هـى ليسـت كذلـك هـى ليسـت نصـف المجتمـع كـما كانـوا يصـورون لنـا ، بـل هـى المجتمـع كلـه دون أدنى شـك ..ثـم اشـتد نهمهـا للقـراءة شـيئا فشـيئا أرادت أن تفهـم الكثـير مـن الأحـداث التـى تحيـط بهـا عـلى مسـتوى العـالم ففكـرت أن تقـرأ فى السياسـة، فى البدايـة أمسـكت كتبـا صغـيرة جـدا ، ثـم تدرجـت أن بـدأت تقـرأ فى كتـب تتجـاوز أربعمائـة صفحـة .

لقـد كان الفـراغ كبـيرا فى حياتهـا ولكنهـا وّظفتـه لصالـح ذاتهـا وعقلهـا كانـت تدخـل إلى مواقـع التواصـل الاجتماعـى لتتعـرف عـلى نقاشـات وأفـكار الآخريـن ، لتجـد نفسـها تريـد أن تنهـم مـن العلـم والفهـم حـول كثـير مـن القضايـا التـى يتحـدث عنهـا الآخـرون ، بـدأت تُحّمـل كتبـا كثـيرة مـن خـلال مواقـع النـت ، كتبـا هـذه المـرة كانـت تكـبر حجـما عـن سـابقيها مـن الكتـب ، كتـب فى التاريـخ ، السياسـة ،

التنميـة البشريـة ، الأدب الغـربى والعـربى ، روايـات ... لقـد تبحـرت

كثيرا فى القراءة فى كل ذلك ، كانت الكتب بمثابة السفن التى تركبها كل يوم بل كل لحظة لكى تسافر عبر السطور إلى شتى الأماكن كانت تتنقل من بين السطور فى سعادة تغمرها ، لقد كانت تنتقل من خلال الأفكار والكلمات من عالم العبيد إلى عوالم آخرى ، مليئة بالحكايات والروايات عن الذات والإنسانية والكرامة ،

تتحدث عن داخل الإنسان وأعماقه ، الإنسان وعالمه الداخلى ، هذا العالم الذى كان غائبا تماما عن أمل ، كان غائبا عن ذهنها أنها إنسانة ، وليست من عبيد « سى السيد» ...كانت تسافر عبر قوارب الكتب من بلد لأخرى وهى لا تدرى أنها تبنى الأن بناء شامخا لن تقدر كلمات ولا إهانات زوجها أن تنخر فيه ولو بقدر ضئيل ، هى لن تُدرك هذا البناء إلا حين اكتماله ، أما الأن فهى على موعد وضع الأساس له ، إنه بناء لإنسانة أخرى إنسانة لم تعرفها هى نفسها من قبل ، إمراة من طراز آخر ، إمرأة ستخرج من شرنقة عبودية الخبز...

لقد أصبح الكتاب هو أنيسها الوحيد فى عزلتها الروحية والجسدية التى كانت تعيشها ، فالحمد لله الذى لم يجعل نهمها هذا لمواقع النت الرديئة أو مسلسلات التليفزيون أو

لحـوارات نسـاء العـمارة التـى لا تنتهـى مـن النميمـة والغيبـة ، كانـت تعيـش بـين سـطور الكتـب، رأت نفسـها ترحـل مـن بلـد لأخـر عـبر الروايـات والكتـب ، كانـت لا تشـعر بالوقـت الـذى يمـر بهـا حتـى تناولهـا للطعـام لم يعـد إلا

وفى يدهـا صديقهـا الكتـاب ، كانـت تُحلّـق بـين ثنايـا الكلـمات والسـطور، كانـت تُنصـت بعقلهـا إلى كل كلمـة وكل فكـرة ثـم تـسرح بأفكارهـا بعيـدا ، كانـت أفـكار الكتـب وقراءتهـا لهـا تنفـض عنهـا غبـار جهـل لسـنين مضـت مـن حياتهـا ، كان شـعاع النـور الـذى يخـرج مـن بـين ثنايـا الكتـب ينـير ظلـمات حياتهـا ..

شردت بذهنهـا يومـا مـا بعـد أن أغلقـت دفتـى الكتـاب الـذى بـين يديهـا سـائلة نفسـها مـن أنـا ؟ لقـد كان سـؤالا إعترضهـا فى هـذا الكتـاب الـذى كانـت تمسـكه منـذ قليـل .. قالـت مـن أنـا ؟ فأجابـت أنـا هـو أنـا ، ولكـن...

تمتمـت هادئـة ولكـن أنـا لسـت شـيئا قـط ، أنـا أَمـة مقهـورة مسـتعبدة تلفنـى سلاسـل الظلـم والقهـر

مـن أجـل الخبـز والمـال .... كانـت هـذه إجابتهـا اليائسـة عـلى نفسـها ، ولكـن قريبـا سـتعرض عـلى نفسـها نفـس هـذا السـؤال بعـد وقـت طويـل وليـالى مـن القـراءة والإضطـلاع وسـتتغير إجابتها،

لانه ستكون هنالك ولادة لإنسانة جديدة عن قريب ، ولكن الآن هى فى فترة المخاض الموجعة ...

مرت شهور طويلة وهى تجالس كتبها ، لقد بدأت تشعر بخفة غريبة فى روحها إنتابها هذا الشعور كثيرا ،

كانت تتساءل ما هذه الخفة التى أشعر بها داخل روحى ؟

كانت لا تدرى أن سلاسل العبودية والجهل والإستعباد كانت تتحطم بداخلها وهى لاتعلم ، لقد كانت كلمات الكتب وصفحاتها قادرة على تحطيم هذه الأغلال ، وكما يسوق الله تعالى الماء إلى الأرض الجُرز ، فقد ساق الله تعالى إليها هذه الكتب ، بل ساق إليها من أصدقاء الخير من كانوا يُيسرون لها فهم مالا تفهمه فجزاهم الله خيرا ، لقد أحياها الله تعالى على حين غفلة من هذا السجان الظالم .

وفى يوم ما انتبهت من نومها وفجأة قامت مسرعة إلى فستانها الأبيض تنزع منه أحلامها وطموحاتها وحياتها التى نحتت صورتها بداخل نسيجه ، قائلة : لم يعد مكان تلك الأحلام هنا فى نسيج هذا الفستان ، أجل لا قيمة لها فى حياة هذا الظالم ، الذى لا يدرى ما قيمة المرأة إلا بحساء وطبيخ وتنظيف وأن تكون على أتم استعداد حين تطلبها شهوته ، لا يهم إن كانت

متعبة أو مرهقة ، لا يهم إلا ما يريده هو ، هو يتعامل مع أَمة ، وليست زوجة له وأُمّا لأولاده .. أجل إن مكان أحلامها ليس هنا فى نسيج فستان أبيض ، لا بل أحلامها وطموحاتها وحياتها التى رسمتها لنفسها لابد أن تكون على أرض الواقع .

راحت تراسل الكاتبة منى التى تقرأ مقالاتها فى المجلة النسائية، تحكى لها عن هذا الشعور عبر البريد الإلكترونى ، طلبت منها أمل توصيفا لهذا الشعور بداخلها إنها تحس بالخفة داخل روحها تشعر بشىء ثقيل كان يقيدها ولكنه لم يعد له وجودا بداخلها فماهو ؟،كانت تحس بخلق امرأة جديدة بداخلها غير التى كانت ، تشعر بقوة بداخلها إنها قوة تجعلها الآن قادرة على قول «لا» وأن تصرخ بها فى وجه كل ما يقهر إنسانيتها وكرامتها ، ماذا حدث ؟ لا تدرى .. وكانت كل يوم تفتح البريد الإلكترونى لعلها تتلقى الإجابة وتريح قلبها وعقلها ،تريد أن تعرف ماهية هذا الشعور الذى انتابها ، وبعد ثلاثة أيام فتحت البريد الإلكترونى لتجد الرسالة بعنوان غريب ، إجابة لم تطرأ على سمعها من قبل كانت بعنوان « البعث الإنسانى» وفى صمت مطبق راحت أمل تقرأ، وفى أسفل هذا العنوان كتبت لها دكتورة منى .. « قد نمر بهذه المرحلة التى تتساوى

فيها لدينا لحظات الموت والحياة ، لا نجد بينهما الفارق كبيرا هى لحظات نشعر فيها وكأننا فى شرنقة لا سبيل لنا أن نخرج منها نشعر فيها بالإستسلام النفسى لكل شىء ويبقى الحال كذلك حتى يحدث بداخلنا ذلك البعث الإنسانى ، أجل أن تشعرى بأن كل مافى حياتك أنتِ حتى أفكارك يتم بعثها من جديد أن روحك تبدلت بأخرى أنقى ، نظرات عينيكِ لم تعد كما كانت من قبل ولا أبالغ فى الوصف والتنقيب إن قلت أن الهواء نفسه الذى تستنشقيه ماعاد كما كان ، تشعرين به يتخلل أنسجة جسدك يوقظها من السبات العميق ، تشعرين أنه تم بعث إنسان من جديد غير الذى كان ولو سألتينى عن متى يحدث هذا البعث الإنسانى ؟ أقول لكِ .. حين تقترب منكِ جرعة الألم الغير محتملة لتتناوليها فتدفعينها بقوة بعيدا عنكِ . توقفت هنا أمل للحظات تكرر هذه العبارة ودموعها لا تتوقف وظلت تكرر حين تقترب منك جرعة الألم الغير محتملة .. أجل ، واختلطت دموعها بصوتها وهى تكرر نفس الجملة ..ثم عاودت القراءة حين تأتيكِ وخزات تلكز روحكِ بشدة فتجدين تلك الروح تستجديكِ أن تتمسكى برمق الحياة الذى أوشك أن يغادرها ويرحل ، حين تتوقف عجلة حياتك لتأخذين

قـرارِك للفصـل فى هـذا الـصراع الداخـلى بـين رغبتـك أن تعيشـين إنسـانة وبـين أن تؤجلـين قضيـة إنسـانيتك لحـين البـتّ فيهـا مـن قِبـل الآخريـن ، ولا تسـألينى عـن مـاذا بعـد هـذا البعـث الإنسـانى سـأتركه لـكى فحينهـا سـتجدين أن كل الكلـمات والأحـرف عاجـزة النطـق والوصـف ولكـن سـتصفه لـكى حياتـك..

قامـت أمـل بعيـدا عـن شاشـة جهـاز الكمبيوتـر تـذرع الغرفـة مجيئـا وذهابـا تكـرر الكلـمات فى ذهنهـا وخصوصـا كلمـة البعـث الإنسـانى ، قالـت لنفسـها هـذا مـا أشـعر بـه هنـاك شىء يُبعـث بداخـلى مـن جديـد ، ومـرة أخـرى بعـد شـهور طويلـة مـن القـراءة والإطـلاع راودهـا عـلى حـين غفلـة هـذا السـؤال..

- من أنت؟

آه .... تنهـدت مـن داخلهـا ، والعـبرات تتسـاقط مـن عينيهـا لتغـرق وجنتيهاقائلة :

- من أنا ؟

أطرقـت برأسـها وراحـت تمسـح هـذه الدمـوع ، ولكـن إجابتهـا هـذه المـرة قـد اختلفـت عـن سـابقتها .. قالـت :

- أنـا إنسـانة ُولـدتّ مـن جديـد ، أشـعر بحريـة وخفـة داخـل روحـى ، لقـد كانـت ولادتى عسـيرة جـدا ومخـاضى صعـب للغايـة ،

لقد كانت ولادة عقل وفكر وروح ، إنها ولادة إنسانة جديدة ، أخيرا وجدت هذه الأميرة التى كانت تسكن بداخلى ولا أدرى بها ، أخيرا استيقظت بداخلى كلمة « لا « لأاصرخ بها معترضة على كل ما لا يناسبنى أو يكسرنى أو يريد أن ينتزع منى هويتى ، أخيرا أصبح لى حلما أطارده فى كل وقتى ، وأعيشه فى مخيلة عقلى .. ثم تمتمت قائلة :

- الآن فقط علمت لماذا يخاف البعض من أن تقرأ المرأة لأنها إن قرأت انتبهت من غفلتها تبحث عن عرش مملكتها المفقود هكذا كان حديثها لنفسها ..

منذ شهور قليلة كانت ترى نفسها أمة مقهورة ، ولكن الآن بعد شهور من القراءة والسفر عبر ضفاف الكتب أصبحت ترى نفسها أميرة بل ملكة ُمتّوجة على عرش مملكتها ،..

ياله من فارق بين هذه المشاعر وتلك ...إنها القراءة للكتب قادرة على تغيير نظرة الإنسان منا لحياته بل قادرة على إنارة العقل وتصفية الروح من كل شائبة..

جلست ذات يوم تحتسى قهوتها المفضلة فى الصباح ، كانت شاردة الذهن تفكر ، هل كانت تفكر فى هذا الرجل؟

لا إطلاقا إنه لم يعد يمر على بالها أصلا ، إنها انتقلت بذهنها

وأفكارها إلى عالم نقىّ جميل ، وتلك هى الغربة التى كانت على موعد معها هى غربة الأفكار والعقول ، إن حدث أى حوار بينهما كان يعده صراعا لا حوارا لذا ما كانت تفكر فى أن تتكلم معه

ولا عادت تتسّول منه مشاعر الرومانسية والحب ، لقد سأمت مهنة التسول تلك ، لقد كان آخر عهدها به فى الكلام من شهرين تقريبا حين صرخ فى وجهها قائلا لها :

- سأكسرك وأتزوج عليك ، ولم يعتذر بعدها ،

قالت :

- تكسرنى.. ترددت تلك الكلمة فى ذهنها وعلى لسانها ، لم يدرك أن قبولها للإهانات سابقا ذلك لأنها كانت ُمكبّلة بسلاسل الظلم والقهر سلاسل الخبز تلك ، أما الآن وقد تحطمت تلك السلاسل الواحدة تلو الأخرى فهى لن تحتمل أى إهانة إطلاقا ، ما لم يعتذر.. ولكن أىّ إعتذار هذا الذى يفكر فيه ذلك الرجل ، إن الإعتذار لا يليق إلا بالأقوياء ، بمن يقدرون على احتواء ضعف زوجاتهم ، الإعتذار حقيقة هو ثقافة لا يستطيع أن يتعلمها الجميع ، بل هى حكر على ذوى العقول الناضجة ، إذن يا ترى وهى تتناول قهوتها فيما كانت تفكر ؟ أجل شرد

ذهنها وهى تسأل نفسها سؤالا ..

- ما هى الحياة ؟ ما معنى الحياة بالنسبة لى ؟

للحظات ، ران الصمت حتى قالت :

- الحياة بالنسبة لى ، كأنى وسط حديقة كبيرة من الزهور ، فهناك زهور تبدو رائعة المنظر جميلة الرائحة ، وتلك هى المواقف التى تسعدنا وكذلك التجارب التى ننجح فى إجتيازها ، وهنالك زهور أخرى رائعة المنظر ولكنها لا تبدو لى جميلة مثل الأولى ، وهذه هى المواقف والتجارب التى تقسو علينابين الحين والاخر ، لا رائحة جميلة تجذبنا بين ثناياها ولكننا مصرون على أن نستمتع بشكلها ، أجل .. مُصّرون على أن نستمتع بنتائجها وخبراتها لننطلق بها فى خضم الحياة فنزداد بها قوة وثباتا.. فكلما زادت محن الإنسان إزدادت معها قوته ... تنهدت أمل قليلا ثم أكملت .. وقد أسير بين زهور حديقتى فأجد فيها عددا ليس بقليل من الزهور التى ذبلت وانحنت سيقانها فلم تعد قادرة على حمل نفسها ، لم تعد بداخلها حياة (لقد ماتت).. وهى تلك النفس التى بداخلى التى تطاردنى بين الحين والاخر، لقد هرمت من كثرة الهموم وانحنت من شدة الالام ، وذبلت أوراقها من كثرة

إصابات الحياة ، لقد تشوهت ، نزفت بشدة حتى ما بقي بداخلها نبضا للحياة ، تلك الزهرة أقطفها برفق ولا أنزعها بقسوة أبدا ، لقد كانت جزءا من حديقتى « حياتى « يوما ما، وبرفق أواريها فى التراب إجلالا لها « فيكفيها ما تحملته « وأقول لها : عزيزتى..لابد أن أمضى لإكمال طريقى ، ولكن كيف لى أن أحيا وأمضى فيه ، وجزء منى منحنى الساق ذابل الأوراق؟ كيف لى أن أستمتع بما فى حديقة حياتى من الزهور الجميلة، وأنتى فيها ؟ أعلم أنك تحملت الكثير من ضربات الحياة الموجعة ، ولكنى أود أن أخبرك أنه لولا تحملك هذا، وصبرك على كل هذا العناء ما حصدت أنا زرعى ولا نبت ثمارى ...« وهكذا الحياة كانت تمثل بالنسبة إليها أكثر من معنى رقيق .. وحقيقة إن المواقف الصعبة فى حياتنا هى التى تصنعنا جميعا ، هى التى تشد من أزرنا وتعضد منا ... إن نظرتها اختلفت تماما إلى كل شيء ، بداية من ذاتها ثم مرورا بتفكيرها وعقلها ، قامت من جلستها بعد أن أنهت قهوتها ، ولكن استوقفها شيء ، تمتمت قائلة :

- الحمد لله لم أعد أمة هذا الرجل الذى قهرنى لسنوات، الحمد لله أن كرمنى ربى وجعل لى الحق فى أن أعيش

بحريــة دون قهــر أو ذل ...

كان الكثـير مـن أصدقاءهـا يتعجبـون مـن كلامهـا عـلى صفحـات التواصـل الإجتماعـى عــن العبوديــة والــذل مــن ناحيــة وعــن الحريــة والانسـانية مـن ناحيـة أخـرى ، كانـوا يقولـون لهـا ، لمـاذا تتحدثـين بهـذه اللغـة ؟ ولكـن لم يعلمـوا أن مـن ذاق الحريـة بعـد القهـر ، مـن عـاش إنسـانيته بعـد الـذل والإهانـة ، قـد تـأتى عليـه أوقـات يكتـب فيهـا كلـمات بـل وينطـق بمعـانى ، لا يعلمهـا أحـد سـواه ولا يدركهـا غـيره ، أجـل لقـد كتبـت فى مسـاء يـوم مـا عـلى صفحـات التواصـل الإجتماعـى بعـض الكلـمات ، كانـت تشـعر أنـه لـن يفهمهـا أحـد سـواها هـى . لقـد كتبـت... « إن العبيـد يمـرون بعـدة مراحـل ، البعـض منهـم تسـتوقفهم مرحلـة فـلا يعدونهـا ، فى حـين أن البعـض الاخـر يمـرون بالمراحـل كلهـا فـلا تسـتوقفهم أى مرحلـة حتـى يبلغـون نهايتهـا ويدخلـون طـورا اخـر ، وآخـرون تسـتوقفهم مرحلـة دون الاخـرى ، فقـد تجـد مـن لا يـبرح مرحلـة الرضـا عـن قوانـين الإسـتعباد فيلزمـه ذل صامـت ، وكل مايؤكـد لـه صحيـح مسـاره لاشىء سـوى رؤيتـه لغـيره مـن المسـتعبدين فينتابـه شـعور السـكون النفـسى ولـزوم الرضـا .. وغيرهـم مـن تسـتوقفهم مرحلـة الإسـتيقاظ فقـد اجتـازوا مرحلـة الرضـا لأنهـم انتبهـوا،

انتبهوا لشيء كان يسكنهم ولايشعرون به ، إنه الإنسانية ، فتيقنوا أنهم ليسوا عبيدا لغير ربهم ، ولكنهم لم يعدو هذه المرحلة ولو بشبر واحد ، إنهم انتبهوا ولكن صمتوا ، وآخرون لا تستوقفهم مرحلة الإستيقاظ طويلا ، بل ما لبثوا أن شعروا بحق إنسانيتهم وقيمة وجودهم حتى دخلوا طورا آخر ، لقد علت أصواتهم وخرجوا من جحور الذل يطالبون بإنسانيتهم ، ولكنهم فوجئوا بأعداء الإنسانية العتاة يهاجمونهم ... هنا إما أن ينتابهم شعور الندم أن أصواتهم قد علت ، ولماذا يشذوا عن الاخرين ؟ وهؤلاء للأسف سيكونون أكثر ذلا وانكسارا وبؤسا من ذى قبل ، أو أن لا ينتابهم أبدا شعور الندم ولو للحظة واحدة، بل علموا أن لكل شيء ثمن ، وما أغلى الثمن الذى يدفعونه نظير كرامتهم وإنسانيتهم ، هؤلاء فقط هم من وصلوا للطور الأخير

لا يلوون على شيء أبدا ، ولقد أحسن ربهم بهم إذ أخرجهم من السجن ،(سجن الذل للخبز والمال)

ولقد مرت أمل بكل هذه المراحل فى حياتها ففى الماضى كانت فى مرحلة الرضا بعبودية الخبز وكما كان يقال لها من جميع النساء اللائى يخضعن لهذه العبودية من أجل أن تسير الحياة

هـذا هـو الطبيعـى كل السـتات كـده .. ولكـن القـراءة نقلتهـا إلى مرحلـة أخـرى هـى مرحلـة الإسـتيقاظ والإنتبـاه مـن غفلتهـا ، أجـل انتبهـت إلى إنسـانيتها وكرامتهـا ، وسـتنتقل إلى مرحلـة أخـرى قريبا ، سـيعلو فيهـا صوتهـا عـلى هـذا السـجان الظـالم سـتطالبه بإنسـانيتها وعـدم إهانتهـا وسـتتفكك قريبـا جـدا عنهـا كل سلاسـل الـذل والإهانـة سـتتحطم سلاسـل عبوديـة الخبـز والمـال . وحقيقـة.. مـا قيمـة أن يطعـم الإنسـان منـا جسـده ويريحـه وهـو مذلـول مقهـور مـن أجـل لقمـة العيـش .. كل تلـك المعـانى مـا كان يشـعر بهـا أى أحـد سـواها. جلسـت عـلى مكتبهـا المتواضـع كادت أن تمسـك كتابـا فى التاريـخ الإسـلامى ، ولكـن لم تسـتطع أن تُوقـف سـيل أفكارهـا ، شردت بذهنهـا ثانيـة فقامـت تاركـة مكتبهـا ووقفـت تنظـر إلى نفسـها عـبر مخيلـة عقلهـا كان المـاضى يجـول أمامهـا كـم كانـت تـرى نفسـها مقهـورة مذلولـة لا شـخصية لديهـا أينـما وجّههـا غيرهـا توجّهـت وكأنهـا إنسـان آلى لا قيمـة لـه ، كانـت تتعجـب مـن ضعفهـا واسـتكانتها ، وإذا بهـا تنطـق بكلـمات مـن الذهـب ، أجـل لقـد غـيرت القـراءة والتعلـم والإضطـلاع لا أقـول شـخصيتها فقـط ، بـل حتـى خيالهـا ، رؤيتهـا للأشـياء ، كلماتهـا .. تمتمـت بتلـك الكلـمات تُحـدث نفسـها وهـى تتابـع أحـداث حياتهـا الماضيـة عـبر

مخيلة عقلها قائلة :

- ما الرغبة التى تكمن فى أن يُسلّم الإنسان منا مجاديف قارب حياته لغيره ؟ وما الذى يجعله آمنا مطمئنا وهويرى قاربه يسير به الآخرون فى خضم هذا البحر الهائج من الأمواج ؟ لربما كان ينظر من حوله فيجد مثله أناسا كثيرون يركبون قواربهم ، ولكنهم أسلموا مجاديفها لغيرهم ، فهدأت لذلك نفسه وسكنت سكون العاجزين ، بل ولربما استغرق فى سبات عميق فلم يوقظه البرد القارس ليلا ولا ضوء الشمس نهارا ولا حتى صوت الأمواج الهائجة، فلم يستيقظ إلا عند لحظة وقوف القارب ، وهنا... يقف شاردا بنظراته يصيح منزعجا « ليست هذه الجهة التى أردتها لنفسى .

فاءذا بصاحب المجاديف يرد عليه قائلا : ولكنها الجهة التى أردتها أنا ، ثم نظر وراءه نحو البحر

سائلا ثانية: ومتى قطع القارب بى كل هذه المسافات ؟ رد عليه صاحب المجاديف .. وأنت نائم يا عزيزى ، فإذا به يجلس يبكى حتى أن صوت نحيبه يرتفع ، وفى أثناء ذلك أنصت إلى نحيب الاخرين ممن تركوا مجاديف قواربهم لغيرهم ، حتى وجدوا أنفسهم على جهة لم يريدونها يوما ..

وهذه هى إرادة كل واحد منا ، هى المجاديف التى نوجه بها قارب حياتنا أينما نريد ، فكلما أمسكتها بقوة ، ولم تجعل غيرك يتحكم فيها ، صنعت من حياتك تلك التحفة الفنية الرائعة التى أردتها، وإن تركتها لغيرك سيوصلك إلى الجهة التى يريدها هو ، فلابد أن يتحسس كل إنسان منا إرادته ، هل هى بين يديه أم سلبها منه الاخرون ؟ وليقف الإنسان منا للحظات فى حياته متسائلا :

- هل الوجهة التى عليها أنا الان هى ما أردته لنفسى أم أرادها لى الاخرون؟ ... آه لكلماتك التى نطقين بها يا أمل . كم هى موجعة ولكنها من ذهب ، فكم منا الان سيجد نفسه على جهة لم يريدها هو وإنما أرادها له الاخرون ؟

لقد تحسست أمل أخيرا إرادتها ، لقد أمسكت أخيرا بمجاديف قارب حياتها ، لتسير به كما تريد لا كما يريد الاخرون ، سوف يعلو شراع قاربها أخيرا بحرية لا يخالجه قهر أو ذل من أجل الخبز ، فهى تعلم تماما مفهوم تلك الحرية .. «: فالحرية « هى أن لا تكون أمة إلا لرب العالمين ، لا تنكسر لسواه ، ولا ترفع حاجتها إلا إليه ، لقد شقت طريقها أخيرا لتعلن عن ثقة وعزم « لست أمة لأحد من الخلق « .. ..آه يا أمل صدقتى وربى،

إن من عرف وعاش القهر والذل من أجل الخبز والمال حتما سيعلم قيمة الحرية ولن يتنازل عنها... فالطائر مهما قدمت له من أفضل أنواع الطعام لكنه محبوس فى القفص ، فلن يجد أبدا للطعام مذاقا لأنك سلبت منه حريته .. إن مجرد الشعورو الإحساس بالكرامة والإنسانية يجعل كل واحد منا يحترم ذاته ، ويقدرها ولا يهينها من أجل خبز أو مال ، وما القيمة أن تموت روحك وحريتك وُتغتال إنسانيتك بداخل جسد شبعان ؟

فنحن لسنا أجسادنا فقط ، بل نحن أرواحنا أيضا وهذه الروح دون إحساسها بالكرامة والحرية ستموت حتما ، وإن ماتت سيصير صاحبها مجرد فرد فى قطيع أغنام يسيّره صاحب القطيع كيفما يشاء ، سيصبح مسخا من الاخرين المستعبدين ، سيعيش ظلا ويموت كذلك ، لن يشعر به أحد ، لأنه لم يشعر بذاته يوما ...ما كل هذه الأحاسيس يا « أمل» كل هذا الفيضان من الكلمات والمشاعر الحرة كانت بداخلك ، لربما كانت ساكنة فى قبر ذلك الزوج الظالم ، كلما هممت بالخروج منه

همّ هو بإدخالك فيه ثانية ، لقد رفضت أمل أن تستسلم لعبودية الخبز والمال ، رفضت الإستسلام لزوج لا يعرف أبدا قيمة المرأة ولا حقوقها التى شرعها الله لها ، أبت أن تحميها

قوانين السيد الظالم من أجل « لقمة» أو « مال» .. هى أيقنت أنها ستموت يوما ، ولكنها أبت إلا أن تموت بكرامة ، أجل ستموت إنسانة ، سيتحدثون عنها يوما ما ، سيقصّون حكايتها ، حكاية امرأة رفضت أن تستسلم لزوج ظالم ، أبت أن تسير فى قطيع سائر النساء اللاتى يفضلن المال والخبز على كرامتهن ، أبت أن تقيدها سلاسل العبودية من أجل ُفتات الخبز .. نعم ستواجه محنا وصعابا ، فالسير فى القطيع راحة للجسد فقط ، أما السير فى خلاف طريقه مشقة للجسد وراحة للروح ، لاشك ستكون هناك محنا وصعابا ، ولكن كل أحد أراد أن تكون له قيمة لابد أن تقابله الصعاب فهى الجسور لحياة أخرى ذات قيمة وشرف ، لقد خرجت أخيرا من خندق الإستسلام للذل .

أمسكت بورقة لها وقلم لتكتب شيئا وكأنها على مقربة واستعداد تام لتأخذ قرارا ، كتبت .. فى حيرة يخالطها الحزن ظلت نفسى تنظر إلى كل السلاسل الملفوفة حولها تسأل .. ما كل هذه القيود التى تحيط بى ؟ نظرت جانبها يمينا ويسارا فوجدت كثيرات مثلها يجلسن مقيدات ، سألت إحداهن :

- لماذا يقيدوننا ؟

قالت :

- لا أعلم هكذا وجدت نفسى مثلك ،

سألتها :

- هل حاولت فك هذه القيود؟

قالت :

- لم أفكر يوما وحتى لو حاولت إلى أين أذهب ؟

وردت أخرى :

- ولماذا نفك قيودنا وجميع ما نطلبه ُملبّى لنا من طعام وملبس ومسكن شرط ألا نفك هذه القيود ؟

نظرت نفسى لحالها متسائلة :

- وأين ذاتى بل وأين إنسانيتى التى كرمنى بها ربى ؟ وما قيمة أن أطعم جسدى وأريحه وروحى بداخلى تصرخ تأبى عبودية الخبز والمال ؟

وفى شجاعة وجرأة راحت تفك كل سلاسلها وقيودها وهى فى غاية السعادة وفى صراخ يحيط بها ممن حولها يقلن لها هل ُجننتِ ستموتين جوعا وعطشا ، عودى إلى قيودك ولفّى نفسك بها قبل أن يراك أحد ، قالت لهن بعد أن فكّت أخر قيودها وهى تبكى فرحا.. ربما أموت جوعا وعطشا ولكنى سأموت

إنسـانة ...

رنّ جـرس البـاب فأغلقـت دفترهـا تاركـة لـه عـلى الطاولـة وفتحت أمـل البـاب وكان طفليهـا كالعـادة فى المدرسـة ، لقـد كانـت راويـة ، فـما رأتهـا أمـل حتـى ارتمـت بـين أحضانهـا ، وقالـت :

- كنـت أفتقـدك طيلـة الفـترة السـابقة وكنـت أداوم الإتصـال بـكِ فأيــن كنــتِ؟

ردت راوية وهى تتحرك ناحية المطبخ:

- لـن أجيبـك الآن قبـل أن أحـضر لنـا كوبـين مـن القهـوة ، أيــن الــبنّ؟

قالت أمل وهى تجهز جلستهما فى الشرفة :

- سـتجديه فى الـرفّ العلـوى بجانـب الأطبـاق ، ومـا هـى إلا دقائـق وجلسـت راويـة بجانـب أمـل تقـدم لهـا قهوتهـا ، فأعـادت أمـل عليهـا السـؤال :

- أين كنتِ؟

ففاجئتهـا راويـة أنهـا ستسـافر إلى الريـاض فى منحـة تبـع الجامعـة ، بكـت أمـل وقالـت بصـوت متقطـع مـن الحـزن :

- ستتركينى؟

قالت راوية :

- لـن أتعجـل الـزواج ، لقـد تقـدم لخطبتـى رجـال كـثر ولكنـى َفضْلـت أن أبنـى مسـتقبلى حتـى أجـد ....

وسكتت برهة من الوقت ثم ردت أمل :

- حتى تجدين حبة العقد الضائعة ؟

نظرت إليها راوية وقالت :

- أجـل لابـد أن لا أتعجـل فى قـرار الـزواج حتـى أختـار مـن أرضى خلقـه ودينـه وأرضى أن يكـون هـو مـن أُكمـل معـه حيـاتى وبقيـة عمـرى وأنـت كيـف حالـك يـا أمـل ؟

رنّ جـرس البـاب فاسـتأذنتها أمـل وقامـت لتفتحـه ، وأثنـاء ذلـك وجـدت راويـة ورقـة تـكاد تطير مـن بـين أوراق أمـل عـلى الطاولـة مكتوبـة بخـطّ يدهـا فقـرأت العنـوان .. « لمـا نـسى الـوردة» مـا هـذا العنـوان الغريـب ؟ هكـذا تمتمـت راويـة ، وراحـت تقـرأ ..كانـت تودعـه فى صبيحـة كل يـوم قبـل مغادرتـه وفى يـوم قالـت لـه :

- ليتـك ياحبيبـى تـأتى لى بـوردة ، فلـما سـمعت قـرع نعالـه عـلى الـدرج راحـت تجـرى نحـوه مبتسـمة سـعيدة تتلفـت هـل سـيقدم لهـا الـوردة الآن؟ ولكنـه نسـيها ، فلـم تيـأس وأعـادت كرتها فى اليـوم التـالى تطلـب منـه الـوردة ، فعـاد ونسـيها ، كانـت كل يـوم

تترقب أن يغمض عينيها ويأتيها بوردة ولكنها لم تيأس وبقيت كل يوم تودعه وتذكره أن لا ينسى الوردة ، ومرت اللحظات الطويلة من العمر حتى لاحت لها شعراتها البيضاء تلمع فى رأسها وتحسست أوجاعها فى أمائر وجهها فما أقسى وجع الروح يظهر رغما عنا على أساريرنا وكانت آهات غربتها تحط خطا أسودا أسفل عينيها وفى يوم من الأيام ، قال لنفسه :

- لم تعد تسألنى منذ زمن طويل عن الوردة!!! فلما عاد إليها وضع الورد بجانبها لتفاجأ به فى الصباح فإذا بها تستيقظ وتلمح الورد فكتبت له ورقة :

- زوجى ، أشكرك على الورد بعد عمر طويل جدا مضى ولكن اعذرنى فما موضعه من قلبى إلا كموضع الورد من أصحاب القبور « ..

فهمت راوية مقصد أمل من كتابتها ، وكأن الورقة كانت تخبرها عن حال أمل الذى سألتها عنه قبل أن يقطع كلامهما رنين جرس الباب ، فهمت أن قلبها مات ناحية هذا الرجل وأنه لاسبيل أبدا لإصلاح شىء ، وأنها على مقربة من اتخاذ خطوات حقيقية فى حياتها، وما إن التفتت حتى وجدت أمل تحمل معها شاى بالنعناع وبعض البسكويت بعد أن أحضره

لهـا بـواب العـمارة منـذ قليـل ، قالـت أمـل:

- هل قرأتيها ؟

فردّت راوية:

- أجل قرأتها وفهمتها ،

فقالت أمل:

- إن موعـد قدومـه مـن السـفر قـد قـارب وسـأنوى الرحيـل مـن البيـت ومفارقتـه ولكـن بعـد مواجهتـه ، لم تجـد راويـة كلامـا تنصحهـا بـه إلا أنهـا طلبـت منهـا صـلاة اسـتخارة قبـل أى شىء ، وطـال الحـوار بينهـما هـما لا يعرفـان متـى سـتتقابلان ثانيـة وكلـما اقـترب موعـد الرحيـل لراويـة تلـكأت لتعـاود الجلـوس والـكلام مـع صديقـة عمرهـا وابنـة عمهـا ، وفى حنـين راحـت راويـة تـودع أمـل والدمـوع لا تفـارق مقلتيهـما كلاهـما يكـره لحظـات الـوداع ، قالـت راويـة :

- سـأكتب لـك وسـأبقى أراسـلك عـبر الهاتـف والبريـد الإلكـترونى، قالـت أمـل :

- بالتأكيـد أنـا عـلى يقـين مـن أننـا سـنبقى معـا بأرواحنـا وإن لم نلتقـى سـلام يـا راويـة لا إلـه إلا اللـه ،

ردت راوية وهى على الباب :

- محمد رسول الله ، ولا تنسى أن تُقبّلى أولادك حين رجوعهما، قالت امل :

- إن شاء الله

***

عاد مدحت من غربته بالخارج وجاء يطالبها بتقديم فروض الولاء والطاعة له ، ولتلك القوانين التى كانت قد عاشت فى ظلها أكثر من عشر سنوات ، عاد وهو لم يتغير منه شىء ، ولكنها تغيرت تماما صارت إنسانة غير التى تركها ورحل ، لقد طالبته بحقوقها وأن يعاملها كإنسانة وأن لا يهين كرامتها ولا يتعرض لها بالضرب أو حتى بالإهانة اللفظية. ولكنه نظر إليها برهة وهو صامتا وكأنه يريد أن يقول منذ متى والعبيد يتكلمون؟ فما إن رفع يديه ليضربها على وجهها حتى فوجىء بقوة وصلابة يدها تمسك بيده ، وهى تصرخ فيه ، لقد رحلت بل ماتت تلك الأمة التى كنت تقهرها بمالك وخبزك ، ماتت منذ زمن ، والتى أمامك الآن امرأة أخرى قوية لم تعد مقهورة ولا مذلولة لأجل لقمة العيش . نظر إليها فى صدمة لقد فاجئه كلامها. لقد خرجت من سجنه تنفض عن نفسها غبار ألآم السنين الماضية و بدأ صوتها يعلو أخيرا تطالب بكرامتها ، خرجت تصيح فى قوة وثبات ، لم تعتاد عليها كثير من النساء ، دفعت أخيرا باب السجن بكل ما أوتيت من قوة ولم تكن قوة أمل التى دفعت بها باب السجن هى قوة جسدية لا بل دفعته وحطمت كل سلاسل العبودية والقهر بأفكارها وعقلها بقراءتها

وتعلمها ، بمعرفتها أننا لم نكن فى هذه الدنيا أبدا عبيدا لأحد إلا لله . فدفعت الباب بقوة لا يستطيع أحد أن يتغلب عليها إلا بمثلها ، ولم يكن سجانها كذلك ، بل لو كان يفقه قليلا لكان انتبه منذ فترة بتمرد مسجونته لربما حاول استدراك الأمور ولكن حين يصبح العمى فى البصيرة فلا تجادل صاحبه ، وقف السجان على الباب مندهشا كيف فعلت ذلك ؟ نعم يا ظالم، لقد فعلتها هكذا قالت أمل

حينما تركت لعقلى حرية التنقل بين الكتب ، حين قوى إيمانى بالله وعلمت أنه هو الرزاق ذو القوة المتين ، حين علمت أننا خُلقنا أحرارا فلا ننكسر إلا لله ، لقد وُلدتُ من جديد ، والحمد لله ، أجل الحمد لله أنك لم تشهد مخاض ولادتى ، وإلا لكنت وَأدْتها من أول وهلة ..... لقد أصبحت لى القوة التى رممت بها جدار حياتى ، ومملكتى وبنيت حولها أسوارا ضخمة ولكن أسوارى ليست من الطوب والطين والحجارة التى تؤسسون بها مبانيكم الواهية التى تتساقط مُتهدّمة مع أول زلزال ينقضّ عليها ، ولكن أسوارى بنيتها من قوة إيمانى بالله ، أسوارى من تلك القراءات والأفكار التى كانت بين ضفاف الكتب ، هذه الأسوار لن يقدر أحد على إقتحامها حتى أن أموت ، ربما

هنـاك مـن يحاصرهـا ، وتطيـل فـترة حصـاره لهـا ، ولكنـه سـيعود خائـب الرجـاء ، أنـا الان أجلـس عـلى عـرش مملكتـى التـى لم أكـن أدرك يومـا أنهـا حقـا لى فى هـذه الحيـاة

بـل لم أكـن أدرك يومـا أن لى مملكـة فى هـذه الحيـاة لا غنـى لى عنهـا ، كنـت أعتقـد أنى أمـة لـك ولسـت ملكـة ...

انطلقـت أمـل مـن سـجنها تهـرول فى سـعادة بالغـة لقـد تركـت لـه سـجنه أقصـد بيتـه ، وكان منـذ قليـل هـمّ أن ينـال منهـا بالـضرب.. لقـد كان مشـهد خروجهـا مـن سـجنه فى غايـة الروعـة، أخـيرا سـيعانق وجههـا نسـيم الحيـاة لتعـود نضرتـه إليـه مـن جديـد ، وابتسـامته الغائبـة عنـه مـن سـنين .وراحـت أمـل تأخـذ بعـض الرمـال مـن عـلى الأرض وهـى تبـكى ، أثنـاء خروجهـا وهرولـت عنـه بعيـدا ظلـت تتأمـل تلـك الرمـال وكانـت جاثيـة عـلى الأرض و بهـدوء كانـت تتسـلل مـن بـين أصابعهـا ، فلـم يبـق منهـا شـيئا إلا تلـك الآثـار عـلى يديهـا .. تسـاقطت عبراتهـا مـن عينيهـا كانـت قليلـة ثـم لم تسـتطع منـع هـذا الفيضـان منهـا ، تذكـرت سـنين عمرهـا كـم تسـللت هـى أيضـا مـن بـين يديهـا وهـى لا تشـعر بهـا ، لقـد كانـت تاركـة لصفحـات حياتهـا دون أن تكتـب فيهـا سـطرا ، أطرقـت برأسـها برهـة وهـى تتسـاءل مـاذا كنـت أنتظـر

طيلة هذا الوقت ؟ ولكنها نظرت حولها فرأت الكثير من حبات الرمال حولها ، كأنها تناديها ، هيا خذى منى وابنى ما تريدين ، إنتبهت لحظة.. أجل لقد تسللت منى سنين كثيرة من عمرى ، ولكن مهما مضى منها سأبدأ الان ، نعم الآن ، سأقيم جدار حياتى قبل أن ينقض، سأتناول صفحاتى لأكتب فيها كلماتى وحروفى التى لطالما أهملت كتابتها سأجعل بداية صفحاتى من أجمل ما تكون ، سأتناول ألوانى الجميلة لأرسم بها لوحاتى الرائعة ، لن أجعل اليأس ينخر فى عظام إرادتى وأحلامى ، سأفتح نوافذ روحى لتستنشق هواء الأمل حتى لا تختنق فتموت كمدا سأجعل من تجاربى المؤلمة جسرا أعبر عليه إلى جهة أفضل ... ، لقد تركت سجن العبودية آخذة أبنائها بيديها تسرع خطاهم جميعا فى فرح وسعادة ، صاحت فيهم لا تخافوا أبدا ، إن عشنا سنعيش بإنسانيتنا دون سجنه وخبزه وماله ، وإن متنا سنموت بإنسانيتنا وكرامتنا .. لم نعد من الأن نسبّح بحمده هو ولا نكسر أنفسنا من أجله ولا نذل إنسانيتنا لخبزه .... لقد خرجت من السجن وبعد أن ابتعدت عنه وقفت على بُعد مسافة طويلة جدا ، ثم جثت ثانية على الأرض ، لقد أنهكها الجرى هى وأولادها طيلة هذا الوقت ،

أطرقت برأسها برهة ، ثم رفعت رأسها تنظر إلى السجن ، قائلة: - لقدِ نلت منى كثيرا من عمرى وشبابى وصحتى وأحلامى وطموحاتى ، ولكنىِ نلت منك فى النهاية وكل ما فات سأستدركه قريبا ، يكفينى أنى حطمت سلاسلك من عنقى وقدمى وذراعىّ ، كسرت قضبانك الحديدية ، فالحمد لله الذى قال « إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم « فإن الله تعالى لم يغير مابى من قهر وذل إلا حينما غيرت نفسى وعقلى فشعرت بذاتى وكرامتى ، وكانت الجائزة أنى قد خرجت من هذا السجن المظلم الكئيب ، فالعبرة ليست بقوة الضربات وإنما بمدى قوة إيمان العبد وثباته عند تحملها ، فكم من أناس استسلموا للضربات الأولى ، فوهنت حياتهم وضاعت أحلامهم وأصبحت ذكرى ومازالوا يعيشون فى يأس صامت .... إن الصعاب لمْ تُخلق لنبكى من أجلها وُنهزم أمامها بل هى إختبارا لقوة إيماننا وشجاعتنا ، هى أوسمة شرف فى حياتنا .. فمهما كانت الصعاب التى ستواجهها أمل فى حياتها ستظل تلمع فى عينيها نظرة الإصرار ...

الإصرار على أن تعيش إنسانة وتموت كذلك ، سوف ُتعلّم أبنائها درسا فى الحياة « وما أثمنه من درس وما أعظم الثمن

المدفوع نظير تعلمه ، ستعلمهم أن لا يكونوا أفرادا فى قطيع العبيد وأن الإنسانية لا توضع فى الميزان مع أى شىء ، وإن كان خبز أو مال أو أى شىء ... لقد راح السجان ينظر إليها متعجبا من حالها ، لا يكاد يعرفها على الإطلاق .. أجل فالعلم والتعلم يغيران من شكل الإنسان نور العلم يجعل من مظهر الإنسان شخصا آخر ، إن القراءة التى تجعلك قادرا على تحطيم سلاسل القهر والذل فهى قادرة على تغيير كل ملامحك وسماتك بل وحتى نبرة صوتك ، بل مجرد علمها بأنها إنسانة لها كرامة وحقوق كان كل ذلك جديرا أن يغير من شكلها وتركيبة عقلها وسلوكياتها وردود فعلها كافة ، ظل يرمقها وهى تهرول من سجنه ، حتى إن انتبه فصاح فيها ... عودى ، إما أن تعودى لسجنى وقواعدى وشريعتى ، وإما أن أتركك دون خبز ومال أنت وأولادك ..وفى ظل صراخه انتبهت إلى عويل قطّاع الطرق فى طريق حريتها يصرخون فيها ستموتين أنت وأولادك فعودى إليه وادخلى زنزانته ولفّى نفسك ثانية بسلاسل القهر والذل ، واستغفرى سيدك وقولى لن أعود لمثلها أبدا . كانوا قطاع الطرق هؤلاء نساء فى عائلتها أقمن على عبودية الخبز والمال سنين طويلة، وعمها الذى يخشى عودتها لمنزله ولكنها لم تجد

سبيلا إلا منزل أبيها وأمها لتلجأ إليه ، لما سمعت صياحهم وأقوالهم .... وقفت تلتقط أنفاسها ، فكم هى ُمنهكة من سنين السجن الكئيب الظالم ، وقالت لهم بثبات وقوة ، ولو كان سجنه مملكة فلن أعود ، وإذا كان سيقدم لى ألوان الطعام والشراب لن أعود .. إن الطير الحبيس ُتقدم إليه الطعام فى محبسه فى صحن صغير ، والماء يوضع له فى إناء ضئيل ، فإن قرر أن يخرج من محبسه ليطير سيصبح لديه أنهارا كبيرة يشرب منها الماء بدلا من

إناء صغير وحقولا مليئة بأنواع شتى من الطعام بدلا من الصحن الصغير .. ستكبر جناحيه عما كانت بداخل المحبس ، فلا بد له وأن يقرر ماذا يريد ؟.....

وقف الجميع وقد ران الصمت بينهم للحظات وهم يستمعون إليها ، لا يفهمونها ، فالعبيد لا يفهمون لغة الأحرار ..... وقف الرجل، اقصد السجان متعجبا من أين أتت بهذه القوة ؟

كيف حطمت كل هذه الأغلال والسلاسل التى كانت ملفوفة بها ؟ من أين أتت بأن لها حقوقا وكرامة ,وإنسانية ؟ ألجمته هذه المفاجئة فلم يعد قادرا على أن يصدقها أو أن يتحملها ... وبجانبه

كان هناك سجانون كثيرون هم رجال بنفس طباعه السيئة وأفعاله الظالمة يقفون على وجل ينظرون إلى سجونهم فى قلق وفزع يملأ قلوبهم وكأن لسان حالهم يقول .. هل سيكون هناك غير تلك المرأة من تقدر على فك أغلالنا وقيود الخبز والمال ؟ يخشون من أن تكون هناك « أمل» ثانية بداخل معاقلهم ولا يدرون، يخشون من أن تقوم امرأة تحطم قضبان السجن على حين غفلة من السجان ، فانطلقوا يفتشون فى سجن « أمل» ما الذى كان السبب فى إنقلابها على السجان ، فما وجدوا غير كتب كثيرة وأقلاما وكراسات .. فراحوا فى جنون بتفتيش سائر السجون يحرقون الكتب ، وكل ما يجعل النساء الأخريات لهن عقل ناضج ، يحرقون فى خوف كل ما تتعرفن النساء من خلاله على حقوقهن ليظللن مقهورات ذليلات لهن سائر حياتهن ويبقين تحت غمامة عبودية الخبز والمال....

لقد كانت الجاهلية القديمة فيها يوأدون جسد المرأة أما الآن فى جاهلية اليوم فهم يوأدون فكرها وعقلها فلا يعلو لها صوت فإن علا صوتها قالوا لها إنه عورة ، وما العوار إلا فى عقولهم وأفكارهم.. أرادوا من المرأة أن تظل ملفوفة بسلاسل الظلم وأن تكون سائرة فى قطيع من الأغنام فإن أرادت أن تخالف القطيع

وأن لا يحكمها ذلك الياسق» شريعة التتار» الذى وضعوه هم لها وكذبوا عليها حين قالوا لها هذا شرع الله ..

كذبتم والله إن ربى لا يرضى بظلم العباد ، لقد حرم الله الظلم على نفسه ، فكيف يرضى بأن يظلم الرجل امرأته وأن يقهرها وأن لا يعاملها بإنسانيتها وهو يعلم من داخل نفسه أنها لن تعترض من أجل الخبز والمال والعيال ، فما كانت النتيجة إلا أن زاد عدد هؤلاء الظالمين ، وكل امرأة رضيت بضعفها وبالذل والقهر وإهانة كرامتها من أجل لقمة العيش فقد صنعت لنفسها طاغية يتحكم فيها وتعبده هى ولا تدرى بل وُتسبّح بحمده آناء الليل وأطراف النهار لعله يرضى عنها ويعطيها المزيد من الخبز والمال ...

****

راحت أمل بعد أن هدأ روعها ونام أولادها راحت تكتب أول مقال لها ترسله إلى المجلة النسائية وكتبته كذلك على مواقع التواصل الإجتماعى فى كل من الفيس بوك وتويتر ، كان أول مقال لها بعد كسر سلاسل الخبز والمال ، لم تعد امرأة مابين الإنسانية وعبودية الخبز بل اختارت الإنسانية على عبودية الخبز ، مسحت الغبار من على الكمبيوتر ، فكل شيء فى بيت أبيها يعلوه التراب منذ سنين ولم يفتح أحد هذا البيت ، ولكنه لم يعمل ، فراحت تبحث فى حقيبة ظهرها على هاتفها وراحت تدخل من خلاله على البريد الإلكترونى وعلى مواقع التواصل الإجتماعى لتكتب ...

مقال بعنوان:

(إمرأة إختارت الإنسانية على عبودية الخبز) .

إلى كل فتاة لم تتزوج حتى الآن ،

لا تتسرعى ركوب القطار، أقصد قطار الزواج حتى تعطى لنفسك الفرصة الكافية أن تتأكدى من أن هذا الرجل هو من سترضين لنفسك أن تكملى معه حياتك المقبلة ، أن يكون فعلا هو سند لك

وقت ضعفك وانكسارك ، أن يكون هو الحضن الدافىء الذى تسكبين بين ذراعيه كل عبراتك وهمومك ، أن يكون هو البيت الذى ستسكنين فيه ، فتجدى بين عينييه سكنك وراحتك ، تمهلى عزيزتى قليلا قبل اختيارك ، و لا تجلسى طيلة عمرك فى محطة قطار الزواج فى انتظار مروره وخائفة أن يفوتك ، لا أرجوكى ، لابد أن تعيشى حياتك وأن تتعلمى وتواصلين تعلمك كلما ارتقيت إلى درجة فى تعلمك إرتقى إلى أخرى ، كلما ارتفعت فى سلم عملك درجات ، ارتقى إلى غيرها ، واعلمى أن الرجل الذى سيأتى وأنت تنتظرينه فى حالة من يأس وطول انتظار سيكون معبرا عن

حالتك تلك ، أما الرجل الذى سيأتى إن لم تنتظريه يائسة وغير قانطة من تأخيره ، صدقينى سيكون شيئا آخر أفضل وأحسن ، فالإنسان منا حين يكون يائسا ووصل إلى مرحلة القنوط لطول انتظاره شيء، سيختار أى شيء .. وستكون عاقبته خسارة كبيرة .. إلى كل امرأة فى كل مكان ، أنتى كائن عظيم جدا تتحملين الكثير من أجل الآخرين ، أنتى إنسانة ، كرمك الله وجعل لك حقوقا كما جعل عليك من الواجبات ،

عزيزتى المرأة ...لابد أن تعيدى اكتشاف ذاتك من جديد فلربما

تكتشفين بداخلك الكاتبة التى لم تكتب روايتها التى ينتظرها العالم من حولها حتى الآن ، أو لربما تكتشفين بداخلك الشاعرة لتى لم تكتب شعرها الرائع إلى الآن ، أو لربما ستجدين بداخلك المخترعة التى لم تجهز ولم تكمل إختراعها إلى الآن ، لربما تستكشفين بداخلك العالمة التى لم تخرج إلى الناس برسالتها لتعليمهم إلى الآن أو الفنانة التى لم تبهرنا بفنها إلى الآن ... ستكتشفين الكثير سيدتى ، فأنا مؤمنة أن بداخل كل امرأة قوة داخلية عظيمة ، لم تخرجها إلى الآن لابد ، أن تدركى أن القراءة ستوسع من إدراكاتك وفهمك للحياة وستنزع من حولك كل سلاسل الظلم والقهر والإستعباد، ستجعلك تقفين أمام متاعب ومشاكل الحياة ثابتة قوية لديك إصرار كامل أن تكملى حياتك مهما واجهتك الصعوبات ، أنت بداخلك قلب رقيق يحمل بداخله السعادة والحب بل والتضحية للآخرين، أنت قادرة بابتسامتك أن تدخلى الفرح والسعادة على كل من يحيطون بك ، قادرة إن تعلمتى وقرأتى وثقفتى نفسك أن ترتفعين بنضج عقلك قبل أن ترتفعين بكعب حذاءك قادرة أن يشع نورك وعلمك حول من يحيطون بك ، قادرة على أن تثقفين أمة بكاملها، أنت عزيزتى الأساس لكل بيت لكل أسرة

لـكل مدرسـة لـكل مـكان تتواجديـن فيـه إن كان قويـا سـليما سـيكون مـا فوقـه مـن بنـاء قـوى وسـليم لا ينهـار أبـدا ...

لابـد أن تعتقـدى بداخـل نفسـك أن مـن حقـك أن تعيشـين بكرامـة وإنسـانية ولا تستسـلمين ابـدا لظلـم وقهـر الآخريـن حتى لـو أرادوا هـم أن تعتقديـن ذلـك ...

عزيـزتى اعلمـى أن كل منـا طيلـة وقتـه يمسـك بهـذه الألـوان وتلـك اللوحـة أقصـد لوحـة حياتـه يرسـم فيهـا كل مـا يريـده هـو وبالألـوان التـى مـن اختيـاره ، فمنـا مـن يميـل لتلـك الألـوان الداكنة فيرسـم بهـا لوحتـه فتبـدو فيهـا الكآبـة والحـزن بـل وقلـة الحيلـة واليـأس وانقطـاع الأمـل فتنطبـع هـذه اللوحـة فى عقلـه ومخيلتـه بـل وكل قـرارات حياتـه تكـون خارجـة مـن إطـار هـذه اللوحـة الداكنـة، نعـم إنهـا تصوراتـه ، قناعاتـه الواهنـة التـى ارتـضى بهـا ، ولـو التفـتِّ قليـلا حولـك لوجـدت الألـوان المبهجـة بجانبـك ، فتناوليهـا سـيدتى ، وارسـمى بهـا لوحـة تبهريـن بهـا الجميـع بـل وتطبـع فى مخيلـة عقلـك أجمـل الإنطباعـات ، وكل قراراتـك التـى سـتخرج مـن إطارهـا سـتكون أجمـل وأعظـم مـن الأولى .. إنهـا حياتـك فـلا ترسـمين فيهـا إلا بأجمـل الألـوان وحتـى لـو اضطـررتى إلى هـذه الألـوان الداكنـة مـن

لحظات الحزن والسقوط والهم ، فاعلمى أنها أتت لتكونين اقوى من ذى قبل وأنها أتت لتمضى لا لتبقى وحينها ستمحين هذا الخط الداكن وسترسمين بدلا منه آخر مبهجا)

قامت تاركة هاتفها ، وراحت تنظر لنفسها فى المرآه وهى تقول... ولو بقيت على الشاطىء طيلة عمرك تستمتع بنسيم الهواء وتبنى برماله البيضاء قلاعا عالية وتنظر إلى أديم البحر فى دهشة وإعجاب ، سيمر بك العمر وأنت لا تدركُ

كُنه البحر ، ففك حبال قاربك من سارية الشاطىء..

تمت